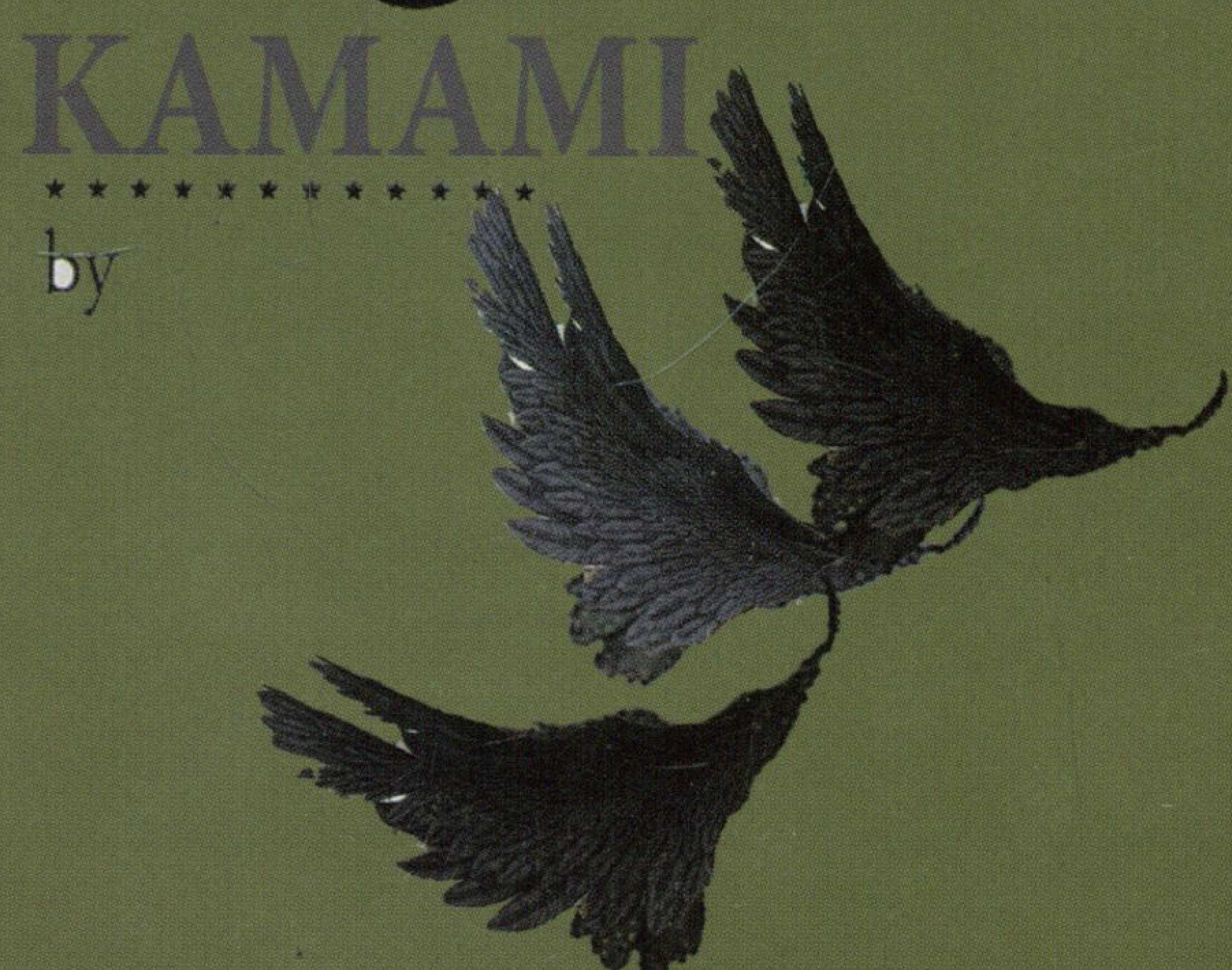


EF HAM & KAMAMI

by



إفْ/ هَم

كمامي





إفْـ / هَم



كمامي


Novel
رواية


SEFSAFA PUBLISHING HOUSE
www.sefsafa.com


مؤسسة الإمارات
Emirates Foundation

كمامي/ كاتبة إماراتية، ولدت في 1989 أبوظبي- السلع، طالبة جامعية، وتعد روايتها: «إفـْ / هَمّ» أولى كتاباتها، وقد أنجزت عام 2005، وهي ما تزال في السادسة عشرة من عمرها.

رواية

....

إفـْ / هَمْ

كمامي

الطبعة الأولى 2010

رقم الإيداع: ٢٣٧٣٩ - ٢٠٠٩

جميع الحقوق محفوظة ©

عدا حالات المراجعة والتقديم والبحث والاقتباس العادية، فإنه لا يسمح بإنتاج أو نسخ أو تصوير أو ترجمة أي جزء من هذا الكتاب، بأي شكل أو وسيلة مهما كان نوعها إلا بإذن كتابي.

No part of this book may be reproduced or utilized in any from or by means, electronic or mechanical including photocopying, recording or by any information storage and retrieval system, without prior permission in writing of the publishers.

الناشران

محمد المزروعي ـ محمد البعلي

المحرر العام

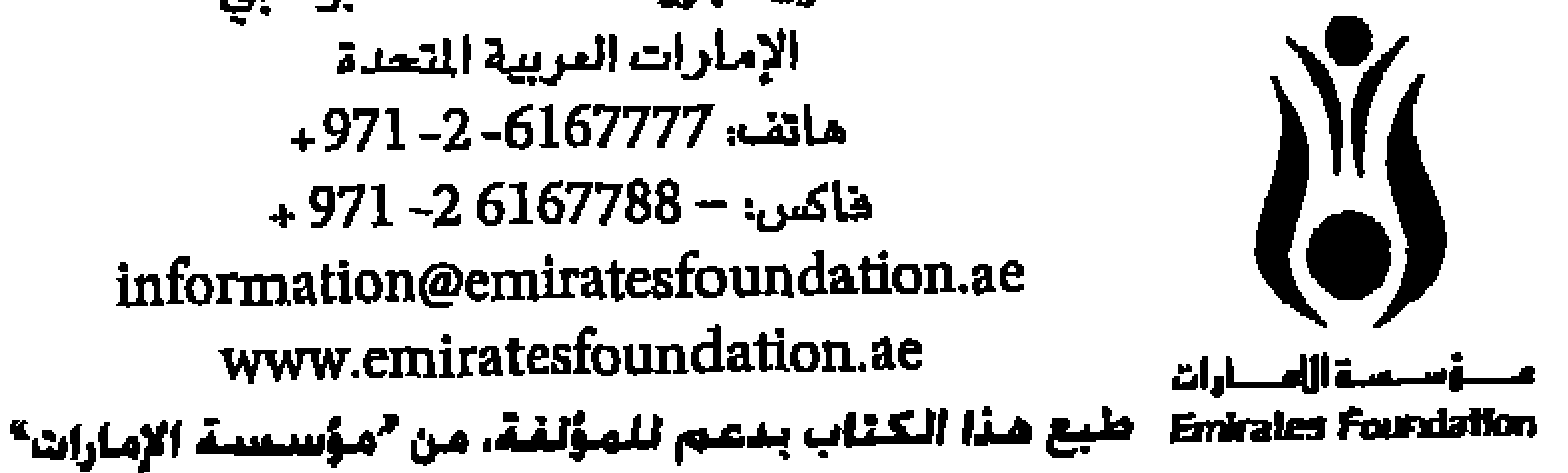
مؤمن المحمدي

الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبّر بالضرورة عن رأي دار صفصافة.



دار صفصافة للنشر والتوزيع والدراسات

٥ ش المسجد الأقصى - من ش المنشية - الجيزة - ج م ع.



صندوق البريد: - 111445 أبو ظبي

الإمارات العربية المتحدة

هاتف: 6167777-2- 971+

فاكس: - 6167788 2- 971 +

information@emiratesfoundation.ae

www.emiratesfoundation.ae

طبع هذا الكتاب بدعم للمؤلفة، من "مؤسسة الإمارات"

إفْ / هم

1

أغلقت باب غرفتها، وابتعدت عنه بتردد، وهي تدير رأسها تجاهه. كثير من المشاعر والأحاسيس في داخلها تتصادم بلا توقف، بينما تنظر لذلك المفتاح الذي يرتكز بشموخ على قبضة الباب المطلية باللون الذهبي. أرادت بشدة لو أنه يتلاشى من أمام ناظريها.. أن يختفي، فإنه يعرض عليها خياراً مغرياً، يصعب ردعه عن فكرها، قوة خفية تلبستها، وجعلتها تخضع لجبروتها اللطيف، وأخذت تجرها من قدميها، حتى أصبحت أمام المفتاح تماماً، ما كان عليها سوى أن تديره، لتحظى ببعض من الخصوصية. كم تتمنى الحصول على بعض منها، كم تود التعرف عليها.. وكم تود معرفة تأثير تلك الخصوصية على روحها.

كانت ترجو الحصول على الشعور بالاستقلالية، ولو اضطرت لخلقه رغم حرص العائلة؛ فعيون كثيرة تراقبها طوال الوقت، مليئة باهتمام أناني، تنشد الحرص والرعاية التي تخطت حدود اهتمام تم خرق معناه الجميل، وكلمات مزعجة تتساقط عليها باستمرار، كزخات المطر الكريمة، كأنها صخور تسقط بسخاء من سماء لئيمة، وأسقف وقحة، تَكسر عظامها بسرور وتدفن كرامتها بمحبة. استجابت لذلك الدافع وأقفلت باب غرفتها على عجل، واستلقت على سريرها مسرعة كأنها تلغي ما أقدمت على فعله.

كانت غرفتها بسيطة، مصبوغة بلون أزرق مريح. يقابل سريرها خزانة الملابس، وإلى جانبها صندوق برتقالي اللون، تضع فيه أغراضًا متنوعة. كانت «سلمى» من الأشخاص الذين يحتفظون بأغراض وأشياء

لا يحتاجونها، ولا تهم سواهم، كأنه إدمان. لا يمكنها ترك زر خلفها، أو حتى قلم لا يقوم بعمله، بسبب ضياع غطائه، وأهم ما كانت تملك في ذلك الصندوق أحمر شفاه زهري اللون له لمعة حلوة، وقد ابتاعته في آخر زيارة لها لأحد الأسواق.

كل ما كانت تريده، هو أن تفرد ظهرها على السرير، دون أن يزعجها أحد، دون وجود من يفتح الباب مستفسراً عنها، دون أصوات تغزو رغبتها في الاسترخاء، بدا الأمر كأنها تود أن تتبخر من الوجود، لقد ملّت واجباتها كابنة واخت، أرادت أن تستقيل من الحياة، لكن يبدو أن العقد الذي أبرمته مع الحياة، لَطويلٌ جداً، والشعور الذي يسكن روحها، ويحيط بجسدها، وذهنها المشوش-حينما تدرك أن الباب الذي يفتح ذراعيه إلى عالمها الخاص.. مغلق، ومغلق بإحكام- لشعور مغر، إطاره الراحة ولوحته الرفاهية.

2

كان يوم سلمى سيئاً، كالأيام الأخرى من حياتها التي يمكن وصفها بالمملة. بدا كأن الأسبوع الماضي تماماً كهذا الأسبوع، إلا أن أمراً واحداً شعرت باختلافه اليوم، فبينما كانت منهمكة في دراستها وإدارة المنزل إلى جانب والدتها، لم تر أحداً من إخوانها يمضي الوقت في المنزل.

منذ أسبوع انقطعت اتصالات شما؛ اتصالات تنتظرها بشوق من أسبوع لآخر، اتصالات من فتاة كانت أختها يوماً، أخت بدا من اتصالاتها السابقة كأنها شخص مختلف. هل يحوّل الزواج فتاة محبة للحياة، إلى فتاة لا تقدر على وضع كلمتين في جملة؟ ما هذا التوتر الغريب الذي أصابها؟ تشعر بوجه أختها النضر يزداد عتمة وشحوبا، اتصال بعد آخر، تشعر بها تتلفت يميناً ويساراً كمن قام بعمل شائن. أنفاسها غير مستقرة، كأنها في غرفة ضيقة لا تجد رئتيها فيها الهواء الكافي. رعشة تحيط بكلماتها القليلة المبهمة. حاولت سلمى معرفة خطب أختها، إلا أنها لم تتمكن من معرفة السبب الذي يكمن وراء ذعرها الغريب. هل تصدق إجابات أختها؟ هل تتوقف عن سؤالها عن خَطْبها؟ كيف تصدق إجابات تخلو من الصراحة، التي ألفتها في حديث أختها دوماً؟ كيف تتوقف عن الاهتمام بأختها والاكتراث بحالها؟ ما الذي حل بشما يا ترى، ما الذي تشكو منه؟ لم تعد تثرثر كما كانت تفعل في السابق، لا.. إنها ليست شما، إنها شخص آخر، شخص بدا أن الحياة فارقت صوته. أين رنة التفاؤل التي كانت فيه؟ بدت كشخص جرجرته الحياة في

أنفاقها المظلمة، دعكته بوجهها الآخر... بوجهها الأسود.
أصابت «سلمى» الحيرةُ، وأخذت تضع احتمالات لما يحدث، فشما لم تكن صادقة في أجوبتها. توترها الفاضح، يهدم كل ما تبنيه من صدق مزيفْ، يحيط بأجوبتها. لا يوجد ما تقدر «سلمى» على فعله تجاه هذا الأمر، وكل ما تستطيع القيام به هو أن لا تتوقف عن الاطمئنان على شما، فهي أختها الصغيرة على أيّة حال، وستبقى كذلك دائماً، وفي نهاية الأمر لا يمكن لسلمى سوى الإلحاح على أختها لتخبرها بما يحدث معها، فتسألها عن صحتها، وأحوالها؛ أما السؤال الذي وجدتْ صعوبة في طرحه، كان حول معاملة زوجها «سالم» لها. أرادت سلمى أن تزور أختها، وتقبلها على وجنتيها، كما اعتادت أن تفعل حينما كانت معها تحت هذا السقف، إلا أنها لا تستطيع القيام بذلك الآن، فزوج أختها «سالم» يعمل في منطقة بعيدة.
كان من الممكن أن تكون سلمى مكان أختها شما. كانت سلمى المرشح الأكثر حظاً في هذه المسألة، لكن شما وجدت موضوع الزواج مثيراً للاهتمام، أكثر من تعب الدراسة، فحينما قدمت الوالدة لتحدث ابنتيها حول ذلك الأمر، لم تصدق سلمى أن ما تقوله والدتها، هو ما يريده عمها «سيف»، فقد اعتادت أن تجده متفهماً، وألفته يرى أن الدراسة مهمة للفتاة أكثر من الشاب أحياناً. كان ما تعرضه والدتها عليهما أمرا لا يمكن أن يفكر فيه هذا العم، فهو عكس الصورة التي كونتها عنه. فقد كان هو من أصر على أن تدرس بالأصل، وأقنع والدها «زايد» بضرورة فعل ذلك، بعد سنة من عمرها ضاعت دون دراسة. كانت اعتقاداته العادلة، ما تميزه عمن حوله، وها هو الآن يوشك على إخراج إحداهن من المدرسة. ثارت «سلمى»، ولم توافق على أن تتزوج سواء هي أو أختها، فقد رأت قرار عمها ظلماً لكلتيهما، لكن ما جعلها تحتار وتحزن، أكثر من الخبر، هو تغيّر عمها المفاجئ، فقد كانت تجالسه، وتتحدث معه، وقد بدا كصديق في العشرين، أكثر منه عم في الأربعين– لم تصدق

أن ذلك العم – الذي كان يطل عليهم، بعد ظهر كل يوم، قد أقدم على اتخاذ قرار يتعارض مع ما يؤمن به، فما الذي أدى إلى تغييره؟ لا بد أن يكون أمرا كبيرا حتى يستحق ما كان يتحدث عنه بحماس، فقد أصبح فجأة يرى أن الزواج، هو ما على الفتاة تكريس نفسها له، لا الانكباب على الكتب والدراسة، التي أصبح يرى بأنها لن تعود على الفتاة بشيء، فيما الزواج يؤمن لها رجلاً يرعاها، وأطفالاً تهتم بهم، ومنزلاً تشعر فيه بالاستقرار. لم يبد التغيّر المفاجئ الذي طرأ عليه منطقياً بالنسبة لسلمى، حسب معرفتها به، وبعد مرور يوم على معرفتها بالخبر، وبعد أن أعادت صياغة مفهومها لعمها، عرفت أنه بلهجته الصارمة يعني ما يقول، وأن لا مفر لإحديهما من عش الزوجية.

ما كانت سلمى تعلمه جيداً، هو أن رفضهما لن يُأخذ بعين الاعتبار، ولن يمر مرور الكرام. في تلك الأيام شعرت بحياتها تنتهي، ومستقبلها يتحطم، وأحلامها تتبخر، لم تعتقد يوماً أن عمها، الذي كان له فضل كبير عليها، سيضرم النار في جسدها، بقراره الظالم. أحست بغضب يشتعل داخلها، تنتشر حرارته في أرجاء جسدها؛ حرارة العجز. لم يكن هناك ما يمكنها فعله، فقد كانت صرامته تأكيداً للواقع الذي ستعيشه إحداهن قريباً، لكن انبعث أخيراً من ذلك الرماد، الذي بقي من التهام قرار العم لما في داخلها، أمل؛ رجاء أنه هو نفسه سيأتي لينقذها مما لا تريد خوضه.

وقفت شما وقالت: إنها لن تسمح لأختها أن تتزوج رغماً عنها، وأكدت بنبرة رزينة تكاد «سلمى» تسمع فيها صدى رغبة وسرور، أنها لا تمانع أن تتزوج ابن عمها «سالم». كانت شما تتوق للخروج من منزلها، ولم يكن الظرف الذي سيخرجها من المنزل، مهماً في نظرها، نعم...كانت ذكية، إلا أنها لم تكن كذلك في نظرتها تجاه ذلك الأمر. لم تكن شما يوماً على وفاق مع إخوانها، يوميا تدخل معهم في شجارات، لأسباب سخيفة، كانوا ينسون ما هي في الأصل، حينما يقع الضرر، وتنطبع

الكدمات على الجسد، والشعور السيئ في الروح. كانت مرهقة بأوامرهم حول ما يجب عليها فعله في ذلك الموقف، ومتى تسكت، ومتى تتحدث، وما يجدر بها أن تلبس، وكيف تمشي، بدا كأنهم يسيّرون حياتها كما يريدون، مما جعلها ترغب في الخروج من الأجواء التي تُلزمها أن تكون قريبة منهم بأيّة طريقة. لكن سلمى تعاطت مع الأمر بشكل آخر، ربما بشكل أفضل، جعلها قادرة على العيش معهم بسلام، فقد بدا لشما أنهم وجدوا ليجعلوا حياتهن صعبة، بدلاً من تسهيلها، وكان أمر الزواج، لا تضحية تقدمها لأختها فحسب، بل أملا في الحياة تقدمه لنفسها أيضاً، ربما خوف شما من أن تبتعد سفينة الأمل عن ميناء التعاسة التي تعيش فيه، هو الذي جعلها تقفز على عجل في بحر من الجهل، لتتشبث بتلك السفينة، حتى قبل أن تصل للميناء، فشما لم تقف هناك برهة تفكر فيما ينتظرها على تلك السفينة، و ربما ما عاشته وعانت منه على ذلك الميناء، لا يقارن بما ستعانيه على تلك السفينة، فلا يعلم أحد ما يخبئه لنا المستقبل.

بعد أن جرى الزفاف، وانتهى كل شيء، وابتعدت شما مع زوجها سالم لتلك المنطقة البعيدة، فارق النوم عيني سلمى، وعاشت أسابيع تشعر بالذنب، بأنها من دفع أختها لهذا الزفاف، وأنها حرمتها من التعليم الذي سيعطيها فرصاً كثيرة في الحياة، ودفعتها للانخراط في أمر لا تفهم حقيقته. كان الذنب الذي يعتصر قلبها، لأسابيع طويلة، ما تزال سلمى تشعر بأشلائه تحتل أجزاء من قلبها، حتى الآن وبعد مرور كل ذلك الوقت الطويل، وبالرغم من أنها تعلم أن تضحية شما، لم تكن تضحية صادقة تماماً، كما أرادت لها أن تبدو.

3

الساعة الثانية عشرة. منتصف الليل. كان يوم أربعاء دراسي منهك. سئمت سلمى روتين حياتها الممل، وتمنت لو أن شيئاً ما يحدث؛ ليكسر قبح هذا الجو الرتيب. كانت نهاية الأسبوع، وشعرت بنفسها منهكة، تعاني طوال أيام الأسبوع، لتحصل على تلك اللحظة التي تفرد ظهرها فيها، وهي تعلم أن الغد عطلة. أخذت تتقلب على السرير حتى وجدت بقعة مريحة. تنهدت محاولة أن لا تفكر في أي شيء، أن تسترخي، إلا أن الأمر بدا أصعب مما تصورت، كأن عليها أن تقف على قدميها طوال الوقت، وما كان على إحساسها بالسعادة، إلا أن يظهر رغم الأعباء الكثيرة؛ غداً لن تستيقظ لتصارع صعوبات الدراسة، بل لتصارع صعوبات تجري حولها في منزلها، صعوبات لحسن الحظ، أقوى منها. لكن هذا الأربعاء مختلف، لا لانقطاع اتصالات أختها «شما» طوال هذا الأسبوع، فقد افترضت بأنها على ما يرام إلى جانب زوجها سالم، و لا لغياب إخوانها المتكرر عن المنزل، بل لأن الباب مغلق بإحكام. هناك شعور مختلف صاحب قرارها، اقتحم روحها بلياقة، لم يشغل بالها سوى أمر واحد كانت تتوق للقيام به هذه الليلة، وحينما برزت رغبتها العميقة في القيام بذلك الأمر، تلاشت كل إستراتيجياتها الفاشلة في الاسترخاء.

ترجلت من فوق سريرها، الذي بدا كسحابة من المريح الاستلقاء عليها. أدخلت هاتف المنزل إلى غرفتها. جلست خلف الباب وتنهدت. ضغطت على الأرقام التالية: 141، ثم قالت تلوم نفسها: «لماذا لم أشتر ساعة

آخر مرة ذهبت فيها للسوق!» كانت سلمى تحب معرفة الوقت، وفقدانها للإحساس بالوقت يدفعها للتوتر، لم تكن هناك طريقة سريعة سوى الهاتف. أخذت تحبو على ركبتيها حتى وصلت للصندوق البرتقالي، جلست أمامه، وأخذت تعبث بمحتوياته باحثة، بفوضوية، عن شيء ما، وكأن الاسترخاء الذي أرادته منذ قليل تبخر في الهواء، حينما بزغت رغبتها في استخدام ما سيعزز شعورها تجاه نفسها كأنثى. أخرجت أحمر الشفاه، ورأت خلال غطائه الشفاف لونه المذهل، ولمعانه البراق. كانت ترغب منذ ابتياعها له أن تشعر به على سطح شفتيها الجافتين، يمسح عنهما شحوباً لا يبدو أنه سيزول قريباً، فبشرتها لم تلمس مستحضرات التجميل، التي كانت في منزلها كالكائن الغريب. نزعت عنه الغطاء، وأدارته ببطء ثم قربت أنفها منه، كانت رائحته طيبة، ثم مسحت به على شفتيها، ونظرت في المرآة، فإذا بها ترى امرأة جميلة في مواجهتها. شعرت سلمى بأنها مختلفة، كأنها ترى نفسها للمرة الأولى، أخذت تقرب المرآة حتى أمكنها رؤية مسامها، وتبعدها حتى تختفي صورتها؛ كحد السيف كانت عيناها، وأهدابها كثيفة سوداء، وطويلة، تتزاحم بلطف لتحيط بعينيها الواسعتين، ويمكن لقطرة ماء أن تنزل بسلام من على أنفها. كانت ممتلئة الجسد بعض الشيء، شعرها أسود يميل إلى اللون البني الداكن، يمكنها أن تأسر أي رجل بابتسامتها، فحينما تبتسم تكون صادقة، ولا يمكن لأيّ شاب سوى أن يقدم لها يديه. كان من الصعب على المرء نسيان وجه كوجهها، إلا أنها لا تعرف كم هي جميلة، ولم يقل لها أحد يوماً أنها كذلك.

بعد مضي ثوان طويلة، كانت فيها تحاول التعرف على المرأة التي ترى في المرآة، شعرت بحاجة إلى تفقد والدها، كعادتها طوال الليالي التي مضت، منذ حادث السيارة الذي شلت فيه رجلاه. تجاوزت صالة الاستقبال، وقلبها يسبق قدميها، فالساعة تعدت الثانية عشرة، منتصف الليل، وخافت أن يكون قد نام دون أن تتمنى له نوماً هنيئاً. لم تتخيل

يوماً أنه سينام دون جلساتها الطويلة معه، تتحدث عن أمور كثيرة، فيما يجتاح النوم جفنيه.

سمعت نحيباً يبدو أن صاحبه لا ينوي إخفاءه، وشعرت بيأس غائر يجتاح قلب ذلك الباكي، أصبحت خطواتها أكثر بطئاً، ليس لعدم وجود مسافة عليها اجتيازها فحسب، بل لخوفها مما سترى. أخذ صوت النحيب يعلو كأن حياة ذلك الشخص قد انتهت. وصلت إلى غرفته التي يزيد عرضها عن طولها، والتي لا تحتوي على الكثير من الأثاث، حيث فراشه يتوسط الغرفة وبعض الأغراض على يمينه، وحينما انحنت لتنظر لوالدها، من باب غرفته الذي كان مفتوحاً قليلاً، شعرت بقلبها يسقط. كان مستلقياً على ظهره، مطلقاً العنان لحزنه الذي كبته طويلاً، تحت شعار أنا رجل، بدا بكاؤه كبكاء رجل يطعنه أحدهم بخنجر. لو أن أحد أبنائه رآه يبكي هكذا لنعته بالضعيف، إلا أنها لم تره يوماً شجاعاً كما تراه الآن، كانت سعيدة لأنه يفرغ ما في صدره من أحزان أخيراً، فالأحزان لن تعلن استقلال راحته، ولن تتوقف عن احتلال جزء كبير من نفسه، إلا إذا رمى بعضها الذي يضغط بضلوعه على قلبه، وفي الوقت نفسه شعرت سلمى بالحزن لرؤيته على هذه الحال، ويعجزها عن التصرف، وكأنها تراه لأول مرة. دفعت الباب بيدها ودخلت الغرفة، وهي لا تعلم ماذا ستقول وماذا ستفعل، على عكس الليالي السابقة. صمتت واقتربت منه بعفوية، كانت عيناه الحمراوتان مليئتين بالدموع. عندما شعر بها تدخل الغرفة ضغط على عينيه بقوة، حتى بدا كأنه يود اقتلاعهما، و رمي (بالغترة) على وجهه، بعد أن مسح ما كان ينهمر على وجنتيه المجعدتين من دموع. لم يكن يرغب أن تراه ابنته على هذه الحال، فلطالما كان يلبس قناع الصلابة. وأدركت أنه يتمنى لو أنها تطفئ الضوء وتخرج لخجله الناجم عن بكائه، وهذا ما أرادت محوه برفضها للخروج فوراً. أرادت أن تعلمه بأن ما يقوم به الآن ليس ضعفاً، بل شجاعة، كذلك لم ترغب في المغادرة إلا بعد أن تقبله على رأسه، وتتمنى له نوماً هنيئاً.

ينكمش جسده وينفرد بلا توقف، ونحيبه يزداد عمقاً، بالرغم من محاولة إخفائه. ثنت ركبتيها وقربت شفتيها مقبلةً رأسه. شعرت في تلك اللحظة، بأنها تشاطره المشاعر نفسها، ولبرهة عجزت عن التنفس، وأحست بحبل يشد على رقبتها، ويمنع الهواء من الوصول إلى رئتيها. أحست بحرارة جسده تخفت، كأن الحياة تفارقه. مسح بيده التي ترتجف على رأسها برفق، كأنه يخبرها أنه على ما يرام، وأنه بحاجة إلى هذا، بحاجة إلى أن يبكي. «تصبح على خير» قالت، وهي تقاوم انفعالاً أقوى منها، ثم انصرفت بعد أن أطفأت الأنوار وأغلقت الباب.

لم ترغب أن تبكي أمام والدها، كي لا يقلق عليها، فهو لا يعلم ما قد يقلقها بعيدًا عن ما يدور في المنزل، وإن كان هناك من أخبار ستصله حول ما يدور حوله، فلا بد أن تُحرف بشكل كبير. فهو لا يعلم، بأنها تحبه كثيراً، وبأنه غال عليها، أكثر مما يتصور، وكم تشعر بقلبها ينفطر عليه، ولا يوجد سبب أكثر تأثيراً على قلبها منه، وحالما خرجت من غرفته وابتعدت خطوتين، انفجرت باكية، وأحست بضيق شديد، وخنقة من الصعب احتمالها.

4

أغلقت باب غرفتها، وبدا في لمسة يدها للمفتاح هذه المرة إصرار رقيق، فيه قوة تطالب بخصوصيتها المسلوبة. تجلس على أرضية غرفتها المفروشة بسجاد أبيض اللون، وتسند رأسها على الباب، فيما تتساقط الدموع من عينيها، تعبر عن حزنها على والدها، وما فعلت به الحياة، وربما ما فعل هو بنفسه، حينما رفض الحياة.. وفضل العيش في غرفة حيطانها تصغي له، أكثر من إصغاء أفراد أسرته له أحياناً، لم يكن والدها مثاليًا البتة، لقد شعرت كأنه ابنها، وكم كان ذلك الشعور مبدداً لتحكم العقل بخيارات الإنسان في الحياة، راكناً قلبنا المسكين الذي يشكك الكثيرون في قدرته على إدارة الجسد الذي يسكنه، أفضل أحياناً من إدارة العقل، الذي دفعنا في أحيان كثيرة، لسلك ذلك الدرب الذي يجعلنا نخسر من أحبهم قلبنا المركون، تحبسه ضلوعنا بلا رحمة، حتى ندفن تحت التراب.

هناك ثقل وقح يجلس على صدر سلمى، ولا يبدو أنه سيرحل الليلة حتى تقتله بالإخلاد إلى النوم، وهذا ما حاولت فعله عندما ارتمت على سريرها، لكن الحزن لم يسقط عنها بل تشبث بها. كانت تحاول تجاهل دموعها، وتمرر أناملها الدقيقة في شعرها الأسود الكثيف، عندما رن، فجأة، الهاتف الذي استخدمته لمعرفة الوقت ونسيت إخراجه من غرفتها. ترجلت عن سريرها بإرهاق، رفعت السماعة ثم أغلقتها، فكرت سلمى أنها تسرعت في إغلاق الخط، ركزت يديها على ركبتيها، وأسندت وجهها على راحة يديها، والحزن ما زال مسيطراً عليها، وقفزت

فجأة في رأسـها فكرة أن أختها شـما هي المتصـلة. بعد مضي ثـانيتين رن الهاتـف مجـدداً، فرفعت السـماعة متلهفة وهي لا تقـدر على إيقاف نحيبها المتقطع.
«آلو...السـلام عليكم.» قال أحدهم على الخط الآخر. ردت سـلمى التحية بصـوتها المتعب، ونبرة حزن واضـحة، وقد شـعرت بـخيبـة أمل كبيرة.
«اعذريني على الاتصـال في وقت كهـذا» قال رجل على الخط الآخر وقد بـدا مهذبـاً، ثـم أردف: «أليس هذا منزل هـلال؟» قال مسـتفسراً. «لا...» أجابت سـلمى. أدركت أنه أخطأ بطلب الرقم، ولولا اللياقة التي لمسـتها في حديثـه، لأغلقت الخط، إضـافة إلى أنها كانـت متحرجة من التحدث مـع أحـد، وهي في نوبة بكاء. «لابد من أنه المنـزل الخطأ.» قال وقد بدا متأثراً لسـماع نحيبها، شـعرت بذلـك عندما أخذ يمـد في الكلمات التي يلفظهـا ببـطء، ولم يكن يتحدث بهذه الطريقة عندمـا بدأ المكالمة. «هل كنت تبكين؟» سـألها باهتمام. صـمتت وقد صـدمتها جرأته. أن يصدر سـؤال كهـذا من شـخص غريب أمـر أفقد سـلمى قدرتـها على الـرد، أخذ يتحـدث، وقد بدا مرتاحاً كأنه وجد وضـعية جيدة في جلسـته، تنهد ثم قـال: «يمكن أن تكون أسـباب بكائك عديدة، ولكن اعلمـي بـأن الطريقة واحدة...كلنـا نبكـي بالطريقة نفسـها، أليس ذلك أمر مضـحك؟» وأطلق ضـحكات غبية متتالية، اصـطدمت الواحدة بالأخرى في سـمع سلمى، فأفاقـت مـن صـمتها ودهشـتها. لا بـد أنه وجد نفسـه غبيـا لأنه كان يضـحك وحده. لم يكن عليها سوى إغلاق السماعة، لتلغي ذلك الشخص مـن حياتها. «آلـو..» قال بيأس. لكنها رغم علمهـا بأنه كان يحاول أن يجعلها تضحك، إلا أنها أغلقت السماعة وأعادت الهاتف من غرفتها إلى الصـالة. أطفأت النور، وحاولت النوم دون أن تعير ذلك الرجل اهتماما، ولكن شكرته، لأنه جعلها تنسى حزنها.

5

نظر إلى ســاعة صــغيرة، بـالقرب منه. كـانت السادســة صبـاحـاً، من يوم خميس معتدل الطقس. تقلب ســالم علـى جانبه الآخر، ليتمكن من رؤية زوجتــه «فـاتن». اعتقـد لوهلـة أنـه ينظر إلى امرأة أخرى، لا تمت للملامح العربيــة بصـلـة. كـانت بشرتها بيضـاء و يطغـى على وجنتيهــا اورداد واضــح، ممتلئة الشـفتين. لم يكن ذلك سـوى مـا يريده ســالم في زوجتـه، غير مكترث بمـا يـجول في داخلهـا، فبمـا أنهـا توددت إليه في شهر عسله، فلابد أنها تفعل هذا الشــيء مع رجال كثر غيره، إلا أنه لم يفكر في ذلك عندمــا تزوج عرفياً بهذه المرأة الســورية بعد زواجه من ابنة عمه شـمـا بـأسبوعين.

درســت «فـاتـن» الفندقــة، وتعمل في خدمــة غرفة أحد الفنــادق، حينما لمحهــا ســالم، وتبادلا نظـرات لا تخلو مـن الإعجاب والافتتــان. بينما كانــت «شـمـا» تجلس هنـاك في الجنـاح الفخم للفنـدق، لم تكن تعرف أي شيء عمـا بدأ عند البـاب، وانتهى بمواعيد غرامية في مطاعم هنا وهنـاك. لقد حوّل ســالم شــهر العسل الذي كـان عليه أن يقضيه مع شما، إلى فترة تعرف إلى فـاتن زوجته الثـانية.

كانــت فـاتــن مسرورة حينمــا وجدت الرجـل الذي تعلق قلبهــا به. كان الأســبوعان كـافيــين كي يتعرفــا، ولم تمـانـع من الزواج بــه عرفيـاً، رغم علمها أنه يجلب الكثير من الفضـائح والمشاكل وضياع الحقوق. أُعجبت بصراحة «ســالم» عندمـا أخبرهـا أنه متزوج حديثاً بـابنة عمـه، التي قام

والده بتزويجه بها رغماً عنه. غضّت النظر عما سيحدث لاحقاً، وصدّقت سالم حينما قال لها إن الجميع سيعلمون عن علاقتهما، عندما يأتي الوقت المناسب. هذا ما قاله بصدق هش، في الوقت الذي كانت فيه «فاتن» تشعر بالراحة لأن ابن خالها «سامر» لم يكن موجودا ليزعجها بزياراته الكثيرة والمفاجئة، ومع كل زيارة تتحطم كرامته، إلا أنه لا يتوقف آملا أنها غداً ستوافق على الزواج به. لقد رحل إلى سوريا مع والده لقضاء بعض الوقت هناك مع الأقارب. لم تفكر بما سيحدث بعد رجوعهم. ماذا لو رأى أحدهم «سالم» يتردد على شقتها؟ لقد انجرفت خلف تيار عاطفتها مؤمنة بأن سالم لن يخلف وعوده، فلم يبد لها شخصاً قد يفعل شيئاً قذراً كهذا.

كان «سالم» يبدو شخصاً حسنا مهذبا، إلا أنه خلف التصرفات المهذبة، والعبارات المنمقة، شخص مختلف، يعيش حياتين وربما أصبحت ثلاث الآن بعدما تزوج فاتن، كان مثله مثل كثيرين ممن يهتمون أن يكون ما يراه ويسمعه الناس عنهم أفضل شيء، في حين أنهم فارغون من الداخل، مجوفون يكرهون البقاء مع أنفسهم، فحينها لا يوجد سوى أنفسهم، الفارغة والجافة ترقد بكسل، في أجسادهم المدعية بالصفات العظيمة، يبغضون الصمت فحينها ودون الناس، يكونون لا شيء.

لم يكن يرغب في الزواج من شما فحسب بل كان يكرهها، رغم أنه لم يكن يعرفها. كانت بالنسبة له كالحصاة في النعل، التي تضايقه طوال الوقت، ومهما فعل لن ينسى وجودها تحت قدمه تضغط على لحمه، كانت بالنسبة له كالجلد البارز على طرف الظفر. لم يقترب منها منذ أصبحت زوجته، فهناك من يمنحه الحب بالقدر الذي يريده، فلم سيقدم على لمس من لا يرغب فيه؟ كان زواجه بفاتن كانتقام صامت، تجاه ما أرغمه والده على فعله، وشعر بهذا أنه يرد اعتبار نفسه، إضافة إلى أن فاتن كانت بمثابة طعام دسم يسد به جوعه العاطفي. بدت شما كأية قطعة أثاث منزوية في زوايا المنزل، لم يمنحها فرصة لتشعر بشعور

آخر، غير الكراهية، تجاهه. لم يكن زوجاً لها يوماً بل رجلاً غريباً، ينام في الغرفة نفسها، على فراش يبعد عن السرير عشر خطوات.

مرر أصابعه الثقيلة خلال شعر «فاتن» الأشقر، وما إن مرت لحظات حتى أرخى يده قليلاً، مما أيقظها، لم يكن هناك من كلام يقال: ابتسمت له ابتسامة بدت مصطنعة أظهرت فيها أسنانها المصقولة، وبادلها الابتسامة التي تبددت حينما بدأ يشعر بالتوتر؛ فلم يعتد على النوم في شقتها، فهو يزورها بين الحين والآخر طوال اليوم، ومن الواضح أنه يحب أن يستيقظ على رؤيتها، فيما يتحاشى الذهاب لمنزله، بلا اكتراث لما قد تظنه شما.

6

حالة كسل تشل جسد «سلمى» عن الحركة في صباح ذلك الخميس الهادئ، ورغم أنها كانت تحاول أن تظهر الكره تجاه هذا الضيف المحبوب، إلا أنها لا تستطيع أن تمنع نفسها من مراقبته يمنح عقلها الراحة، فتتوقف عن التفكير لفترة، ويناول قلبها الطمأنينة، فلا تطأ أية أحاسيس تلك المنطقة المدمية التي يسكنها والدها. تستطيع الشعور بذلك الكسل يدوس على كتفيها، يتنزه برشاقة على عمودها الفقري، يقفز فقرة تلو الأخرى برفق لطيف. تتقلب على سريرها بلا توقف، لتسمح لخلايا جسدها باستعادة قوتها كي تنتصر على الكسل المحبوب. كانت تعلم جيدا أنها السادسة والنصف، الوقت الذي تستيقظ فيه طوال أيام الأسبوع، لتجاهد في المدرسة. أخيراً، وقفت على قدميها، وفضلت أن تخرج لإعداد الفطور إلى جانب الخادمة. دخلت المطبخ وقد وجدت الإفطار قد وضع على صحنين: خبز مسخن، وجبن أبيض وآخر أصفر، وبعض البيض المقلي، وكؤوس ليست بكثيرة، وبعض من الأكلات الشعبية كالهريس، المصنوع من حبات القمح يضاف إليه الماء وكذلك الملح، وهناك أيضاً الشاي على الغاز. ألقت سلمى التحية على الخادمة، بينما كانت تتجه لتجهيز إبريق (دلة) كي تصب الشاي بداخله حينما يغلي.

. ساعدت سلمى الخادمة بوضع الإفطار في الصالة، وأمرتها بحمل إفطار الوالد إليه في غرفته. أدركت أنه لا جدوى من إيقاظ أحد من إخوانها، حينما كانت على وشك طرق باب غرفة أخيها «سعيد»، فهم يستيقظون عادة أيام الإجازات، الساعة الحادية عشرة صباحاً، كما كانت تفعل

شما. تذكرت أختها بشوق لبرهة. كانت في طريقها إلى المطبخ مرة أخرى عندما رأت لوحة مركونة في الزاوية، جرتها من ذكريات عن أختها، إلى المكان الذي لم تفكر يوماً في زيارته في منزلها. أشعلت الضوء. كان مخزناً صغيراً، فيه صناديق كرتونية صغيرة وكبيرة، في نهاية الردهة التي توصل لغرف النوم. كان هناك الكثير من اللوحات الدقيقة والجميلة. أخذت تتساءل «لمن هذه اللوحات؟ من أتى بها إلى هنا؟».

أخذت تتأمل لوحة لأم تحضن ابنها الرضيع. كانت ألوانها مثيرة، وكلما تغلق سلمى عينيها وتفتحهما مجدداً، ترى لوناً جديداً، الترابي يعانق الرمادي ويندمج معه، ثم يخونه مع الأزرق القاتم. لم تشعر بالوقت وهي تنظر إلى اللوحة، اقتربت منها، ثم لمستها واستطاعت مقدمة أناملها الإحساس بالألوان تبرز قليلا عن سطح اللوحة، دفء تلك اللوحة كسرته برودة لوحة مغايرة لها، تجاورها معلنة حزنها الوشيك، بحيرة زرقاء تميل للدكنة ولا شيء سواها، تغطي اللوحة بأكملها. وحدة خالصة وعزلة تدفع المرء إلى الخوف، البحيرة تبدو حزينة تبكي، إلا أن دموعها تلك هي هويتها. وجدت سلمى أن التلفت في هذا المخزن الذي يحتوي على هذه اللوحات، لأمر صعب جداً، فكل لوحة تأسرك بقوة ناعمة، لا يمكن لنظرك الابتعاد بسهولة عنها. تقدمت سلمى لتتناول لوحة أخرى، فتعثرت بصندوق كان يحتوي ألواناً وفرشاً مختلفة الأحجام والأشكال. على مسافة قريبة منه، رأت صندوقاً آخر فيه كثير من أغراض الرسم، والمزيد منها في صندوق ثالث. جلست كأن الغموض الذي يلف هذه اللوحات، وقع على كتفيها، كانت تشعر بأنها في مكان آخر، لا المخزن الذي يقع في نهاية الردهة. مخزن لم تظن يوما أنه قد يحتوي على كل هذا. علمت بأن أحداً من أفراد عائلتها لم يشتر أيّا من هذه اللوحات، وأدركت أنه لا بد من وجود سيد لهذا الإبداع. من يمكنه أن يقوم بهذا العمل الرائع، الذي تخنقه ظلمات المخزن؟.

7

تعبت عضـلات وجهها، فكفت عن التبسم، الذي بدا كواجب عليها القيام به. أطبقت شفتيها، ثم استدارت على جنبها الآخر، دون أن تعير اهتماماً للتوتر الذي غزا ابتسامته. كانت شقة «فاتن» المكان المفضل له، منزله الذي يقضـي فيه معظم الوقت، لكن فيما يرتدي ملابســه مسـتغرقا في التفكـير، مطلقـاً تلـك النفخات العالية، آملا أن تسـأله مـا إن كان يريد الإفطار؟ أو ربما إلى أين سيذهب؟ شعر بأنه بدأ ينفر من شقتها، لإبدائها اهتمامـاً أقل به. كان يريد منها أن تحبه كما كانت تفعل في الأسـابيع الأولى، لم يعـد متـأكدا الآن من أنها تحبه، أو أنها أحبته، لكنه متأكد أنه انجذب إليها حتى أنه نقل أغراضــه، مشاعره...حياته من هنـاك إلى هنـا، فهنا ملابســه، فرشاة أسـنانه، و أحذيته، هنا كل شيء يهتم له. وهنـاك في منزلــه، حيث زوجته الأولى شـما، لا يوجد أي شــيء يدل على وجود رجل، سـوى بضــع أغراض بسـيطة. المنزل خال من أية مشـاعر توحي بوجود أناس فيه. الغرف، رغم أنها مليئة بالأثاث، تصـدر صدى مصمّا للآذان حينما تدوس قدم شخص أرضها المفروشة بالسجاد، والحشرات الصغيرة بدأت تبني بيوتها المتواضعة أعلى زوايا الغرف.

وقـف سـالم وقد رغب بـالمغادرة بقدر رغبتـه في البقاء، ولكن لمَ يبقي؟ ليتحـدث مــع الحيطان؟ أم ليمد الكراسـي بـالحنان؟ لم يكن هنـاك سـبب يدفعه للبقاء، والخروج من هنـا سيحسـن من نفسيته، والأمور التي كان يفكر بها، بدت أقل حجماً، وأخف وزناً، حينما بدأ بـالتقليل من شـأنها. خرج من الشـقة، واسـتقل سـيارته وشرب القهوة في أحدى المقاهي ثم

ذهب إلى منزله، أوقف سيارته في الموقف، لا يعلم لم أتى إلى هنا، إلى المكان الذي لا يحب...ولا يرتاح فيه. لقد بدا الأمر غريباً، أن يشعر ببعض الذنب لكونه لم يمض الليل هنا، بالرغم من أن الأمر سواء، له ولشما التي بدت مركونة هناك في إحدى زوايا عالمه الأعمى.

وقف أمام باب منزله، على جانبي الدرج فخاران كبيران، عليهما نقوش جميلة، ويضع أزهار بيضاء على جوانب الممر. شعر بالأمان، وخاف من ذلك الشعور، فحاول التخلص منه بسرعة. كان مفتوحاً؛ فالخادمة تفتح عادة في الصباح أبواب المنزل والنوافذ ليتجدد الهواء، ولكن وجوده في المنزل لم يمح شعوره بالأمان، بل مده بشعور أرعبه أكثر... الاستقرار، فقد بدا المكان دافئاً بألوانه، مميزاً بتفاصيله، عطراً بروائحه. كان يرى هذه المرة ما لم يره في المرات السابقة. رحبت به الخادمة التي كانت تقوم ببعض الأعمال المنزلية، وسألته إن كان يود أن تعد له الإفطار، قال لها إنه يفضل النوم، فالوقت ما يزال مبكراً. صعد إلى الطابق العلوي، وكلما خطا خطوة زادت نبضات قلبه. لم كل هذا التوتر؟ لم هذا الشعور بالأمان في منزله الذي لم يرتح له يوماً؟ وجد شما مضجعة هناك على السرير، مختلفة عن المرأة التي غادرها للتو، لا... لم تكن شقراء، بل أجمل، وأخذ يمشي إلى فراشه كما اعتاد أن يفعل كل ليلة، فإذا به يجد فراشه بملاءات جديدة، رتب بطريقة مغرية تدفع المرء، لدفن نفسه فيه. فرد ظهره براحة، ودفع بالفراش عليه، وشعر بنفسه يريد النوم أكثر من أي شيء آخر. هل الاستياء من قلة اهتمام فاتن به هو ما جعل المنزل بهذا الدفء؟ لم يكن سالم يعلم الأسباب وكان يتحاشى التفكير فيها. كانت الدقائق التي أمضاها في محيط منزلة، منذ نزوله من السيارة حتى استلقائه على فراشه، غريبة.. إنما حتماً جديدة ومختلفة، ولقد كان متأكداً-ليطمئن نفسه- أنها لن تدوم طويلا.

8

فراغ تشعر به شما، في جوفها، هناك قريباً من نفسها، لا يوجد أي سبب يدفعها للاستيقاظ صباحاً، لبدء يوم جديد. كانت تعيش اليوم نفسه كل يوم. لقد سئمت هذا، ألا عليها الاستمرار، عليها أن تفتح عينيها كل صباح، عليها ألا تترك الحزن يمنعها من أن تقف على قدميها، أن لا تدع قلبها يتوقف عن الخفقان، لا.. يجب عليها ألا تترك نفسها تتمزق تحت وطأة الأسئلة الكثيرة، وغرابة حياتها. لم تعتقد يوماً أنه قد يقدم على تجاهلها المؤذي هذا. كانت شما تريد زوجاً.. رجلاً، يبذل جهده ليتعلم أن يحبها، أن يشعرها بأن لها كل المكان في حياته، وربما أنها حياته، وصفاتها السيئة منها والجيدة أقماره وشموسه وما يزين عالمه، أن ينظر إليها كامرأة.. لها شخصها، ما تحب وما تكره، ما تريد وما لا تريد، يتعرف على المرأة بداخلها، فهناك الكثير مما يجهله، وإن لم تكن له الرغبة في معرفة عالمها، إن لم يكن يود معرفة المرأة الأكثر غموضاً في حياته، فحينها ستجبره –هكذا تخيلت– برقتها، وعذوبتها النقية، على أن يذوب في شلّالاتها، وأن يصرخ بأعلى صوته، رامياً بكبريائه جانباً، معترفاً أنه كان أكبر غبي لعدم رغبته في معرفة المرأة التي ستكون حب حياته مستقبلاً، حينما يصبح هو بدوره مستكشفاً ماهراً لعالمها، وسيعرف، لاحقاً، أنه مهما أصبح ماهراً في معرفته لامرأة حياته، سوف يصبح مستكشفاً مبتدئاً، لأنها عالم مليء بالمفاجآت، سوف يجعله يتعجب، كلما بدأ رحلته في اكتشاف جزر هويتها الغامضة. كانت تتخيل أنها قادرة على أن تجعله يعتذر حينما يخطئ في حقها،

ويعتذر عما سيسببه لها من أذى اليوم وغداً، وتعلّمه ألا يخضع لكبريائه بسهولة، حتى يحظى بابتسامة رضا منها. كانت تتخيل ذلك كي لا ترفع الراية البيضاء، أمام جيش أسود يحاول دفعها إلى الحضيض.. إلى قعر الكأس. كانت تفكر في ذلك حتى تبعد عنها إحساسًا بأن المنزل تحول إلى مقبرة لمشاعرها، حتى لا تحتضر مع صمتها.

فكرت كثيرا على هذا النحو، مندهشة كيف لها أن تحب شخصاً.. يبغضها؟ وتشعر بكرهه أكثر من شعورها بوجوده. كانت مشوشة، تشعر بأنها لا تدرك شيئاً، سوى ما تكنه من مشاعر تجاهه. لم تكن قادرة على تجاهل مشاعر قوية كهذه، تجاه زوج.. لم يكن زوجاً لها يوماً. إنها تحبه صامتة، كما اعتادت أن تكون منذ أصبحت أسيرة لخوف لا أصل له، منذ أن أصبحت رهينة لشكوك وتساؤلات، عجز عقلها عن فهمها، شكوك وتساؤلات، لا تعرف الرحمة، حولتها من شخص محب للحياة، إلى شخص لا يعلم ما إن كان راغباً في العيش يوماً آخر.

9

كان ذلـك النسـيم الطيـب، الـذي هب من مـكان ما داخل المخـزن الذي تجلس فيه «سـلمى»، تنظر إلى اللوحات ناسـية كل شـيء، قد رافق فتح أخيها «راشد» للباب. كانت منهمكة في تأمل اللوحات مستمتعة بالنظر لـكل تفصـيل دقيـق، ومع نمـو دهشـتها زادت تسـاؤلاتها حـول هوية الشخص الذي رسم هذه اللوحات. التفتت إلى راشد الذي وقف بلا حراك، وتعابير غريبة تتزاحم على وجهه. افترضـت أنه رأى الضـوء ينسـل من بـاب المخـزن فجـاء ليعرف مـن في الداخـل. قالت وهـي تقـف، حاملة بيدهـا لوحة أخرى، لجزء من وجه إنسـان: «انظر إلى كل تلك اللوحات؟ إن هـذا لا يصـدق.» دنت نحوه بينمـا كان يقف بنفس الوضـعية، التي أتى بها، وقربت اللوحة إليه قائلة بحيرة: «راشـد...انظر إنها...أليسـت... رائعة؟» وضـعتها جانباً ثم أخذت تشير بحماس إلى لوحات أخرى فوق الصـناديق الكرتونية، قائلة وكأنها اكتشـفت كنـزاً: «وجدت الكثير من هـذه اللوحات، إنهـا هناك..فوق...وإلى جانبـك!». دفعته خارجاً بلطف، بعـد أن أغلقت الضـوء، حينما رأت على وجهه تبلـداً غريباً، فقد بدا غير مهتـم بما اهتمت به. قالت بينما تغلق الباب: «الإفطار في الصـالة، هل اسـتيقظ أحد غيرك؟» لم يجبها؛ وبدا مستغرقاً ومتوتراً وهو يمشي معها خلال الردهة.

مضـت ساعات الصـباح ببطء، وخلال تلك السـاعات أخذ البيت ينقص فـرداً تلـو الآخر، وبينما كانت سـلمى تراقب ذلك الأمر يحدث بسلاسـة، جالسـة إلى جانـب والدتها تتناول الإفطـار، نظـرت إلى والدتها قائلة:

«إلى أين يذهبون؟» أجابت والدتها وقد بدا عليها الإرهاق: «إنها الساعة التاسعة، لقد ذهبوا ليهتموا بأمورهم.» سألت سلمى: «أية أمور؟ أمي.» نظرت إلى والدتها بينما كانت تقف: «أمي! محمد يبلغ الثانية عشرة، أيّة أمور هذه التي تهم طفلاً بعمره؟». لم تعر «أم سعيد» ابنتها سلمى أي اهتمام، وتوجهت للمطبخ وهي تقول: «سأذهب إلى بيت عمك، تجهزي إذا كنت ترغبين في الذهاب.» أجابت سلمى: «لا أريد الذهاب، في أمان الله أمي.»

فضّلت سلمى التجول في منزلها، على الذهاب لبيت عمّها، فلم تعد تحب دخوله منذ أن تزوجت شما، إثر قرار صارم ومفاجئ، من قبل عمها الذي كانت تحبه، كما لو كان أباها. لم تقدر على أن تطلب منه تفسيرا، واكتفت بمحاولة نسيان الأمر، إلا أن الأمر بدا أصعب مما تتصور، فهي تشعر بأن عمها قد ظلمها هي وأختها، بقرار صارم أدى إلى بتر مستقبل إحداهن. أخذت سلمى تفكر بابنة عمها الوحيدة التي تعاني من هوس بالجنس الآخر، كلفها الكثير، وإن كانت لا تدرك ما خسرته وما ستخسره مستقبلاً، حينما تقبل بالاستمرار على ذلك النحو، وإن كان والدها يرغمها على أن تكمل دراستها الثانوية، إلا أنها ترسب عمداً. فكرت سلمى بأن على عمها أن يدرك أن بقاء ابنته في المنزل أفضل، لأن المدرسة أسهل وسيلة للوصول إلى الشباب، والتواصل معهم، كما أن الذهاب إلى المدرسة كل يوم أمر مسلٍّ، وهو سبب يجعلها تدرس سنة تلو الأخرى.

فتحت سلمى باب غرفة أخويها راشد ومحمد. قطع الملابس مرمية في كل مكان، والفوضى تعم الغرفة، كأن حرباً جرت هنا، إلا أن رائحة ما، حولت التركيز من عينيها لأنفها. قالت لنفسها: «هذه رائحة سجائر». هزت رأسها رامية الفكرة من عقلها، إلا أن الرائحة ما تزال واضحة. اقتربت من حقيبة «محمد»، الذي كان في الصف الأول الإعدادي، وأخذت تنظر لكتبه التي بدت جديدة. لم تجد أية ملاحظات أو تمارين قد

حُلّت، تناولت كتاب اللغة العربية، وأخذت تقلب صفحاته بسرعة. رأت ما لم تعتقد يوماً أنها ستراه في كتاب أخيها الأصغر. كانت تعلم بأن الصور العارية، مادة من الطبيعي تداولها في مدارس الشباب، فجميع صديقاتها يتحدثن عن تفاقم الأمر مع إخوانهن، لكن أن ترى أخاها محمد، يخوض في الأمر، وأن يحتوي كتابه على صور لنساء عراة، كان أمرا فوق التصديق. أغلقت حقيبته وقررت أن تتعامل مع هذه المسألة لاحقاً، وهي تعلم بأن أياً مما ستقوله لن يؤخذ بعين الاعتبار، فمحمد يتملكه العناد، وذو طبع صعب.غادرت الغرفة، وحينما كانت متوجهة للاطمئنان على والدها، نظرت إلى المخزن في نهاية الردهة، وقفز إلى فكرها مجدداً السؤال: من أتى بكل تلك اللوحات؟ أو من قام برسمها؟

«هل أفتح النافذة؟» سألت سلمى والدها، حينما شعرت بأن على الهواء أن يتجدد في غرفته، فأومأ لها برأسه. أدركت أن حاله لم تتحسن، وخرجت من غرفته عندما أحست بأنه يرغب في البقاء وحده. رأت أخاها راشد آتياً من الخارج، متوجهاً إلى غرفته، فأسرعت إليه قائلة: «هل تعرف شيئاً عن تلك اللوحات؟ راشد». نظر إليها وقال: «لم تكترثين لهذا الأمر؟». أحست بأنها وجدت السؤال المناسب أخيراً لتوجهه إليه: «أنت من أتى بتلك اللوحات؟» صمت، فقالت سلمى وقد بدا عليها أنها وجدت الإجابة: «لا! بل أنت من رسم تلك اللوحات!».

10

في الصالة يجلسان، وقد بدا أنهما فقدا قدرتهما على الحديث، ليسا أبكمين لكنهما كذلك حينما يكونان وحدهما. هدوء محرج. لم يفتح أحدهما التلفاز، ولا يوجد من يتحدثان معه. وبلا شك لا يقويان.. أو ربما لا يرغبان في التحدث معا. يستمع لأنفاسها آملا أن يحدث شيء ما، يوقف الهواء عن ملء رئتيها ومدها بالحياة. كانت تشعر بأن أحداً بتر لسانها، تود أن تقول الكثير، وفي تلك اللحظة بالذات كانت مستعدة لنسيان كل العذاب الذي جعلها تمر به، مستعدة لبدء حياة جديدة إلى جانبه، إلا أنه لم يكن يرغب في ذلك. كانت تود لو أنه يقول شيئاً، فرفضه لها لا يجب أن يكون موجوداً، لأنه يعلمها بعدم رغبته فيها، وصده لها يسحقها، وتجاهله لها يحطمها، إلا أنها لا تقوى على إيقاف مشاعر تتدفق بزخم على قلبها الصغير، كانت تعلم بأنه لا يوجد أمامها شيء يمكنها فعله إزاء هذا الأمر.

«هل فعلت شيئاً خاطئاً؟ سالم.» نطقت شما، وتفاجأت من نفسها بقدر ما تفاجأ هو من سؤالها. رمقها بنظرة غريبة، كأنه يخاطبها بعينيه قائلاً إنه لن يجيبها. «لم لا تتحدث معي؟ ما الذي يحدث؟» كانت تقيد الدموع في عينيها، بعد أن أصبح من الصعب عليها احتمال الأمر لوقت أطول. إن وضعها إلى جانبه لا صلة له بالمنطق، وكان لابد لأحدهما أن ينطق بكلمة قد توضح أي شيء. مرت دقائق طويلة، فيها استوعبت شما أن ما قالته، كان لا بد أن تقوله هذا الصباح أو في أي وقت آخر.

«لا أريدك، لقد زوجني إياك أبي رغماً عني! أكرهك وأكره الحياة معك،

ألم تلحظي ذلك؟ ألا تدركين أنك أكبر مشكلة في حياتي؟ وتسألين ما إن فعلت شيئاً خاطئاً؟ وجودك أكبر خطأ، من هذا الغبي الذي يرغب في التواصل مع مشكلة؟!» كان لابد عليه أن يعبر عما يجول في نفسه، إلا أنه قال أكثر مما تستطيع أذني شما أن تحتمل. حقيقة كانت ترغب في سماعها، وها قد سمعتها بكل ما تحمل من قوة دمرت جميع ما كانت تعتقد وما تظن. تساقطت الدموع من عيني شما. أخذ يمشي مستعداً للخروج، لا من المنزل فحسب، بل من حياتها. التفت إليها قائلاً بغضب: « لا أملك أدنى اهتمام بك كامرأة، هل تفهمين ما أقوله؟» حطم سالم ما كانت تبنيه من أمان للتواصل حينما بدأ بإطلاعها على حقيقة كانت تعلم بها، بطريقة شاحبة أشبه بالوهم. كان غاضباً، وقد ترجم كرهه حينما قال وهو يستعد لمغادرة المنزل: « أكرهك بأكملك، تلك الدهون المكتزنة في جسدك، رائحتك، خطوات أرجلك الثقيلة، أنفاسك..».

في تلك اللحظة، ندمت شما على الأسئلة التي وجهتها له، ورأت أن الصمت الذي كان صديقها لشهور قد خانها، وإن كانت ستعرف بعد ذلك بأن سؤالها له عمل ناضج، فتوضيح الأمورعمل ناضج، إلا أنها لم تكن في حالة تسمح لها بالتفكير الهادئ. كانت مشوشة، وما جعلها تتمالك نفسها هو معرفتها أن حالتها لن تستمر طويلاً على هذا النحو، بل إن ما أقدمت على فعله بسؤالها له، لخطوة كبيرة، وإن لم تدفع تلك الخطوة علاقتها بسالم لأعلى.. بل لأسفل، لكنه كان أمرا ضروريا، كي يستطيع كلاهما الخروج من ذلك الضباب.

كان محطما لها أن تنصت وهو يقول لها بأنها أكبر مشكلة في حياته، وأن وجودها أكبر خطأ، لم يكن عادلاً في حديثه، ولم يكن والده عادلاً كذلك حينما زوّجه بفتاة لا يرغب في الارتباط بها. لم تكن متأكدة مما إن كانت غاضبة عليه، لم تعلم ما إن كانت تشعر بالسوء تجاهه. كانت متأكدة في تلك اللحظة من أنها غاضبة على عمها. فقد صدقت ما قاله سالم للتو، فلم سيختلق كل ذلك؟ وعرفت-في أعماقها المدمية- أنه

كان صادقاً، وأن ما قاله لحقيقة يعيشانها الآن، وتساءلت حول عمها، فإن لم يرغب ابنه في الزواج بها، لمَ أجبره على ذلك؟ هذا ليس من شيم عمها الذي اعتقدت يوماً أنه متفهم. لم تكن مستعدة للتفكير في أي شيء، كانت غارقة في دموعها، تركض إلى غرفتها.

كانت الخادمة في طريقها إلى إحدى الغرف لتنظيفها عندما شعرت بالتوتر في الصالة، وسمعت ما قاله سالم ورأت بكاء شما، اختبأت في الردهة ووقفت مذهولة؛ فقد شهدت للتو ما لا يجب عليها مشاهدته، وبالتأكيد لا يجب عليها فعل ما تنوي فعله عندما اقتربت من التليفون وطلبت رقما يبدو أنها لا تحفظه جيدا وسألت: «هل يمكنني التحدث مع سلمى؟».

11

صـوتـهـا لم يفـارق سـمعه. صـوت خـافت كـالـهمس، بث إليه حزنـهـا الذي يتغلغل في طبقـات صوتـهـا. أسئلة عديدة غزت ذهن «مبـارك»: «أيّة حيـاة تعيشـهـا تلك الفتـاة؟». شـعر بـأنـه دخل حيـاة شخص آخر ليلة أمس، رأى شـيئاً جديداً، مخلوقاً طاهرا، لا يلهث خلف مـا يبحث عنه البعض. أثّرت «سـلمى» بذلك الرجـل، الذي دخل، بصـوتـه، ليلة أمسـ غرفتهـا، حينمـا أخطـأ بطلـب رقم منزل أخيه «هــلال». اندهش حينمــا أدرك أنـهـا لم تبد أيّ اهتمــام بـه، عكسـ فتيـات كُثر. لم يكن في حـاجــة أن تُظهر الاهـتمـام بـه، فلا يبحث عن مغـامـرة، إلا أن الاسـتغراب كـان ضروريـا، لأن كثيرًا من الفتيـات يبحثن عن رقم أحدهم. أدرك أنـهـا مختلفة لرفضــهـا التحدث معه. أراد أن يخبرهـا اليوم أو غدا عن احترامـه لـهـا، إلا أن شعوره بـالغبـاء عندمـا تحدث عن «البكـاء» جعله متردداً حيـال تلك الخطوة.

يعـاني «مبـارك» مـع خطيبتـه، التي لم تكن تحمل لـه مشـاعر حب مشــابـه لحبه. كـانت امرأة جيدة، إلا أنـهـا حدثتـه بـأنـهـا تشـعر بـه كـأخ، وهـو أمر لا يمكنهـا التحكم بـه. لم يفسـخ الخطوبـة، بل أصر أن يعطيهـا ويعطي نفسـه فرصــة، وأكد لـهـا أنـهـا سـتحبـه كمـا يحبهـا وربمـا أكثر خلال زواجهمـا. لم تكن مسـألة الحب المتبـادل أمر تـهتم لـه على أية حـال، مقتنعة بـأن الزواج برجـل لا تحبــه وكذلك لا تكرهــه، أمر مقبـول، في حين أن الزواج في عين مبــارك، قـائم على الحــب. كـان يطمح للمثـاليــة في نـواحي حيـاتـه، ونقل طموحــه إلى فكرتـه حول الزواج، وحينمــا كُبل قلبـه بحب فتـاة لا تبـادلـه ذلك النوع من المشــاعر، تلاشــى الجزء الأهـم من طموحـه للوصـول إلى

الزواج المثالي، إلا أنه تنازل عن هذا، وكان عزاؤه أن تحبه خلال زواجهما. لم يكن من الاعتيادي أن يتنازل بسهولة عن أمر هام، إلا أنها خطيبته، في نظره، تستحق أن يهدم من أجلها بعضاً من مثالية مبالغ فيها.

كان من المحير أن تقول فتاة لرجل مثل «مبارك» وسيم وحالته الاقتصادية جيدة، يملك والده شركات تدر أموالا تسمح له ولعائلته بالعيش في رفاهية، ويملك حبا كبيرا لها، أنها غير مهتمة به. إلا أن خطيبته كانت صادقة معه، وهذا ما جعل تقديره لها يزداد. كان يحبها، لا لأنها ابنة خالته، بل لأنها محبة للغير، وتكترث لحال الجميع، عفوية وصادقة. بدأت بينهما علاقة بريئة، منذ الزيارات العائلية، حتى الحوارات عبر وسائل عديدة على الشبكة العنكبوتية، والخطوبة في نهاية الأمر. كان وفياً لها، وزواجه بامرأة لا تبادله ذلك الشعور الخاص، لدليل كبير على هذا الحب، لقد تنازل عن الكثير لتكون خطيبته، وكان يدعمها في إكمالها لدراستها، يرفض أن يظلمها بالزواج قبل إنهائها لدراستها الجامعية.

من وجهة نظره كانت تضم الصفات التي رغب في تواجدها بامرأة حياته، ولقد فقد اهتمامه بالنساء في محيطه منذ بدأ علاقته البريئة بها، ورغبته في الاتصال بسلمى لم تكن تهدد وفاءه لها، فقد كان يريد أن يتحدث إلى سلمى فحسب، ليتعرف عليها، وربما لتكون صديقة له، كما صديقاته الأخريات في حياته الاجتماعية، كان تفكيره غريباً بعض الشيء في هذه النقطة، فهو يرى أن الصداقة بين الرجل والمرأة أمر طبيعي، وكان ينظر لصديقاته من النساء المتزوجات منهن والعازبات، كصداقاته مع الرجال. ومنذ أن سمع صوت «سلمي» كان يفكر: هل ستقبل بفكرة الصداقة؟

12

تجلس على أرضية الحمام الباردة، وتجهش في البكاء، ما الذي بمقدور «شما» فعله الآن؟ توقعت منه أن يقول بعضاً مما قاله، إلا أنها لم تتوقع أن يراها كما وصفها منذ دقائق، بكل ذلك القبح، تندفع دموعها، ومع كل دمعة تسقط يزداد حبها له. كانت تكره أن تحبه أكثر، وإن كانت مشاعرها المحبة نحوه غير معقولة، وما ذلك إلا لأن منطق القلب غير معقول. إن صده لها يجعلها تتعلق به أكثر، وطوال تلك الأشهر المليئة بالصد، أحبته أكثر. أفكارها مبعثرة، كرامتها تتساقط وتختفي:

كيف له الاستمرار معي إن لم يكن يريدني؟ ما الذي يصبره على حياة لا يرغب في عيشها؟ تناثرت التساؤلات والأفكار حينما أدركت أنه اليوم أو غداً، سينفصل عنها. عاد السؤال من جديد، لم لا ينفصل عني الآن؟ ما الذي يخبؤه ذلك الرجل؟

مكنها باب الحمام المفتوح، من النظر خارج بركة تساؤلات صنعتها بدموعها. كانت بحاجة لتظن أن الأمور ستكون على ما يرام في مرحلة ما في حياتها، لكن كل شيء يبدو في فوضى شائكة الآن. الضعف والإرهاق يشلانها عن الحركة، والألم عظيم، نزيفه ينشر الجفاف في جسدها، قلبها يعتصر وجعاً، وحجمها يتقلص، ونفسها تتضاءل. هناك ساحات معارك صامتة في داخلها، ترغب في الصراخ لتصب غضبها وحزنها بعيداً، ما قالته لم يأت بأي نفع، فمن يستمع لها؟ وما تفعله هنا وهناك في منزلها لا نفع منه، لا.. لا جدوى مما تفعله، فلا يوجد من يقدر جهدها، ولا من يشكرها على ما تقوم به، ولا من يمدحها

للذوق الذي تتسم به أناملها الرقيقة. كانت قد رسمت لنفسها بفرشاة الحماقة مستقبلا حلمت به كل ليلة قبل أن تضع رأسها على مخدتها، منذ كانت طفلة، زُرعت فيها تلك الأمنية التي كان يبثها الجميع في عقلها الطري: الزواج هو كل شيء في حياة الفتاة. أينما ذهبت تسمعهم يقولون: ستكونين الزوجة والأم. كان من الصعب عليها أن تنزع عن روحها وجسدها فكرة ولدت وهي تسمعها من أقرب وأبعد الأشخاص، فأصبحت تخطط.. وهي جاهلة تماماً لهوية ذاتها، لاسمها، جنسها، عملها، تاريخ ميلادها، هوية أعمق من تلك المعلومات التي يجدها المرء في جواز السفر، لم يعطها أحد فرصة للتفكير بنفسها كفرد، فأصبحت بدلاً من التفكير فيما تريده لنفسها، تفكر ببهجة عرسها، وذلك الفستان الأبيض الغبي، والزوج الذي لا تعرف عنه ولو حتى القليل.

ظنت أن الحياة ستملأ منزلها الذي أخذ مساحة كبيرة في لوحة المستقبل، اعتقدت أنها ستجد الزوج الذي وضعت عليه جميع التوقعات والطموحات والأحلام، لكن ذلك الرجل لا يوجد في حياتها الآن، فتناثرت الأحلام والتوقعات والطموحات كالسراب، وها هي تتساقط عليها الآن كالحصى الصلب لتحطمها. حاولت شما تهدئة نفسها، أسندت رأسها على حائط الحمام، إلا أنها اضطربت أكثر، فقد ظنت أن هناك شخصًا ما يراقبها. نظرت يميناً، حيث الباب، مصدقة وجود شخص آخر، إلا أنها لم تجد أحداً. رغبت لو أن أحداً يواسيها الآن، ويشاطرها الحزن والألم، إلا أن لا أحد في تلك اللحظة المميتة موجود، لكن أملاً حياً في داخلها، موجود في محيطها القاتم الذي ابتدعته بنفسها، من خلال وضع سؤال فوق سؤال، واحتمال بجانب احتمال، لقد كانت سيدة نفسها.. نفسها المتخبطة في وهم، حلمت بالعيش فيه منذ كانت طفلة صغيرة، وهم.. لم تتصور أنه قد يكون هكذا يوماً.

13

تجاوزهـــا دون كلمة، فلحقت به والابتســامة تغطــي وجهها قائلة: « لم تخجل من ذلك؟ راشدا» قال لها بينما كان يدخل غرفته:« سلمى، لا أريد التحدث في الأمر الآن.» وقفت تفكر أن هذا الصباح كان بمثابة اكتشاف لما يخبئه إخوانها، من سيئ وجيد. لا يجب على راشد أن يحتفظ بإبداعه لنفسه، بل عليه أن يفتخر به ويشارك به الآخرين. جاءت الخادمة قائلة بأن شخصــا يريد التحدث معها على الهاتف. سألت عن هوية الشخص، قالــت الخادمة إنهــا لا تعلم، لكنه صــوت امرأة أجنبية. تناولت ســلمى الســماعة ملقيةً السلام. رد صــوت امرأة أجنبية السلام من الخط الآخر. سألت: «من معي؟» أجابت المرأة: «أنا خادمة شما أختك.» أجابت سلمى والتوتــر قــد اعتراها فجأة: «نعــم، هل أنتم في المنزل؟ لمــاذا لا يرد أحد على الاتصـــالات؟» تغلبت على دهشــتها. «هل حدث مكروه لكم؟» سألت متوترة. «لا، ولكني كنت أتساءل، ألن تزوركم شما قريباً؟» قالت سلمي: «لا أعرف، لماذا تسألين؟» صمتت الخادمة قليلاً، ثم قالت: «شما منزعجة جداً، وأرى أنه وقت مناسب لزيارتها لكم، كي تروح عن نفسها».

«منزعجة جدًا؟ ما الذي يزعجها؟» ســألت ســلمى في الوقت الذي سمعت الخادمة تقول:

«سالم... زوجها... سأغلق السماعة الآن.»

أرادت ســلمى أن تعرف سبب الاتصال المفاجئ، وتعجبت حينما علمت بـــأن أختهــا في المنزل، فإن كانت موجودة، لم لا ترد على الاتصـــالات؟ ولم أتى اسـم «ســالم»، إجابة على ســؤالها عن الســبب الذي يزعج شما؟

شعرت للبرهة الأولى بالغضب على أختها، وأحست بأنها تتجاهلها، ولكنها دفعت بتلك الفكرة بعيدا، فهي تعلم أنها جاهلة لما يحدث لأختها، ووضع احتمالات لن يفيدها بشيء، وتوقعت أن تتلقى اتصالاً من شما بعد ساعة على الأقل، أو أنها ستقدم على الاتصال في غضون دقائق.

14

سمع بكاءها، وتقطع أنفاسها، وآهاتها. اقترب وألقى نظرة عليها، كانت الحيرة تحيط بها، الغضب يقيدها. ابتعد «سالم» ممسكاً بحقيبة عمله، مهرولاً على الدرج، ومشهد شما وحدها في الحمام يشعره بأحاسيس لم يختبرها من قبل. صراع عنيف بداخله، لا يبدو أنه سيخفت قريباً، على الأقل حتى يخرج من منزله.

رأته الخادمة يقف عند الباب وينظر لها، اقترب منها ودفعها بقوة، من أمام المكتبة الصغيرة التي يوضع عليها الهاتف أعاد طلب الرقم. وقفت الخادمة خائفة، لم تقو على قول شيء سوى أنها كانت تطلب بضع أشياء من البقالة القريبة. أمسك السماعة وأنصت إلى الصمت على الطرف الآخر من الخط. بعد قليل سمع صوت سلمى: «آلو، آلو؟» أغلق الخط وقال: «هذه أخت شما... سلمى؟» أدرك أن الخادمة شهدت كل ما حدث، اقترب منها وهو يشعر بضرورة أن يوقفها عند حدها حتى لا تستمر في التدخل في علاقته بزوجته. «ما الذي قلته لها؟» كان غاضباً، مستعداً لتفريغ غضبه على الخادمة، إلا أنه كان ينتظر أن تقول بعضاً مما قالت، ليجد سبباً أكثر إقناعاً لتحطيم رأسها. أخذ يطرح عليها الأسئلة بشكل فوضوي، ويدفعها بعنف، والغضب يقوده، وشدد بأمرها على ألا تتدخل فيما لا يعنيها.

خرج من منزله غير راضٍ عن المسار الذي تسري فيه حياته، مقتنعاً بأن ما يعيشه ليس خياراً أقدم عليه، بل أمر كان عليه تنفيذه، فرضه عليه والده، كان يشعر بالغضب المكتوم على والده، لكن ما يرفض

سـالم فهمــه هو أن مـا يعيشــه الآن بدأ منذ سـنوات، وكان هو الذي خط لنفســه هذا المسار، لكنه غلف عينيه بغطاء يمنعه من رؤية المسار الذي أخذته حياته. لقد تغير كل شـيء منذ ذلك اليوم الذي ضـبطه فيه والده في حضن الخادمة.

منذ سـنوات طرق «سـيف» والد سـالم باب غرفة ابنه، ليصـحبه لصلاة الفجـر في المسـجد كالعـادة، إلا أن أحدا لم يجب، فتـح الباب، فلم يجده في غرفته: «ربما سـبقني إلى المسـجد؟» قال مخاطباً نفسـه. بحث عنه في المسجد، لم يجده. حينما عاد من صلاة الفجر، كان سالم في المنزل. أخبر والده بأنه ذهب للصلاة وربما لم ير أحدهما الآخر. اقتنع الأب فما من سـبب يدفعه لتكذيب ابنه. مضـت عدة أيام والأب لا يرى «سالم» مع المصـلين، ونفس الموقف يتكرر، والكلام ذاته يقوله ابنـه له كل فجر. ذات يوم أخذ الأب يجوب المنزل باحثاً عن ابنه، فكر أن يذهب إلى غرفة مدبرة المنزل كي يأمرها بالبحث عن سـالم، وهناك رأى ما لم يتوقعه، وجد سـالم بين ذراعي الخادمة، وقـف الأب بلا حراك في مدخل الغرفة. كان سـالم قد فقد قدرته على الحركة، عندما اقترب منه والده وأمسكه من ذراعه كأنه طفل، وقاده صامتا إلى غرفته، وسالم لا يكف عن القول: «آسف يا أبي.... آسف.»

«إيـاك والخـروج من الغرفة، وغداً.. أريد تفسـيراً لما رأيت، ويجدر بك أن تفكر في إيجاد تفسير جيد.» قال والده وابتعـد، ثم توقف، وعـاد ليقفل البـاب علـى ابنه، بعـد أن رمقه بتلـك النظرة التي لم تفارق ذهن سـالم لوقت طويل. سيطر الأب على مشاعره وفضل أن يتعامل مع ابنه الشاب برفق، فلم يفتضح أمره أمام أفراد العائلة. في صباح اليوم التالي تحدث مع «سـالم» وعرف منه أن ما حدث لنزوة، وأن الشهوة كانت أقوى منه. عقـد الأب اتفاقـا مع ابنه أن يتوب ويعدل عن هذا الأمر. بعد شـهور عَلم الأب أن ابنـه عـاد لممارسـة علاقة محرمـة مع الخادمـة الجديدة التي طلـب الأب أن تكون فوق الأربعين. أدرك أنه ما كان عليه أن يحضر أية

خادمة للمنزل في العشرين كانت أم في الستين ويمكن أن تدبر الأعمال التي تقوم بها. أرسل الخادمة لبلادها وابنه إلى قفص الزوجية. حدث كل ذلك دون علم أي فرد من أفراد العائلة الذين كانوا يتعجبون لإعادة الخادمة إلى موطنها، وتعجبوا أكثر حينما رأوا سالم يصبح زوجاً.

15

يقود «محمد» سـيارة أخيه الأكبر «سعيد»، خفية، دون علم أحد. يقودها كمـا اعتاد في هذا الوقت، شـارعين أو أكثر، ويعـود لركنها جانباً، كأن شـيئاً لم يكـن. في يـوم الخميس ذاك، كان في بدايـة رحلتـه المعتادة، عندمـا خرجت امرأة من أحد المنازل لتعبر الطريـق إلى الجهة المقابلة. كانت منطقة سكنية فيها أشجار كثيفة، وكان يود الخروج منها بسرعة، ليقود بحرية بعيداً في الشـوارع الواسـعة. في نفس اللحظة التي انطلق فيها بالسـيارة، محاولا الإسراع لعبور الشارع، كانت تلك المرأة المسنة تضـع قدميهـا على الطريـق، لم تتطلـع حولها، كانت تبدو شـاردة، ولم يعـرف «محمـد» ما حدث غير أنه أدرك صـدم السـيارة المسرعة لجسد المرأة. لحظة خاطفة من نسـيج زمني آخر، كأن الصـدفة أرادت لذلك أن يحـدث، والزمان بثوانيـه ودقائقه أراد كذلك أن يحـدث. كل ما تلا ذلك كان رد فعل، ككرات تدفع بعضـها بعضـا. خرج «محمد» من السـيارة، قـوة غريزيـة تدفعه للتصـرف. العجوز طريحـة على الأرض، بجانب العجلـة التي أطاحت بها، ينظر بحيرة إلى السـيارة والعجوز التي فقدت الحركة، كل شـيء حوله الآن ينهار، كان مسـتعداً لفعل أي شـيء، كي لا يـراه أحـد هناك. الفكـرة التي عنت لـه، أن ينطلق بالسـيارة إلى منزله؛ ليركنها، ويكمل يومه، كأن شيئاً لم يكن.

كانـت العجوز حية؛ مهشـمة، إنمـا حية، حينما انطلق بالسـيارة فوقها ودار نحـو منزلـه بسرعـة. ركن السـيارة وأخـذ يركض علـى عجل إلى «سـعيد». أخذ يطرق باب غرفة أخيه الأكبر، الذي كان يسـتحم استعداداً

لصلاة الظهر. كانت الساعة الحادية عشرة والنصف، فتح «سعيد» الباب مندهشا، أخذ يجفف شعر رأسه القليل، ويسأل محمد: «ماذا تريد؟» كان محمد صامتا يحدق فيه. استمر «سعيد» يسأل أخاه عما يريد، وهو منشغل بتصفيف شعره. «ضربت عجوزاً بالسيارة.» قال «محمد» بعد عناء. نظر إليه سعيد وأصابعه تكاد تفلت المشط. «ما الذي تقوله؟» كان متفاجئاً، ومحمد لا يقوى على قول المزيد. «هل تمزح؟» أخذ محمد يهز رأسه نفياً والدموع تطفر من عينيه، كما طفل انكسرت لعبته. «لم أرها! ظهرت من خلف أشج.. ار.. ولم أرها! ساعدني...؟» صرخ محمد خائفا. هرول سعيد خارجا من المنزل فإذا به يرى في نهاية الشارع سيارتي شرطة وعربة إسعاف. ركض حافياً، ولم يقدر «محمد» على اللحاق به. كان الخوف يشله. سمع كل من «سلمى» و «راشد» الضجة، فهرعا نحو محمد الذي كان يقف عند باب المنزل. كان المنظر مرسوماً في نهاية الشارع. ارتدى راشد حذاءه وذهب ليرى ما يحدث. أمسكت سلمى بكتفي محمد والذعر مسيطر عليها، وأخذت تهزه، والحروف تتساقط من جملها المذعورة: «ما الذي حدث؟ أخبرني.. محمد، أخبرني..!» لم يرد محمد أن يقول أي شيء، واكتفى بالصمت.

عاد راشد إلى المنزل يلهث قائلاً: «أمي.. لقد دهست أمي، أخي قتل والدتي! أيها الحقير.. ألا ترى.. ألا تملك عينين؟» ما إن سمعت «سلمى» ذلك حتى توقف تفكيرها. مرت ثوان حاولت فيها فهم ما حدث، ثم سقطت أرضا، وبينما كان راشد يحملها بمعاونة الخادمة إلى الداخل، ركض محمد خارج المنزل، خارج المنطقة السكنية بأكملها. صرخ «راشد» وهو يرى أخاه يهبط الدرج: «إلى أين تهرب؟»

ينظر سعيد إلى جسد والدته المغطى بالدماء ولا يصدق ما قاله رجال الإسعاف عن وفاتها. يشعر بها حية، يشتاق إليها الآن أكثر من أي وقت آخر. أين محمد.. وإلى أين سيهرب؟ فهذه المرة لم يضرب ابن الجيران، لم يكسر عشرين صحناً، ولم يحرق أية أوراق بالقرب من مناشف المطبخ،

لا.. لم يفعـل أيـاً من ذلك، بل فعل مـا لم يتـخيل أحـد أن يفعله، دهس أمـه التـي دللته أكثر من أي ابن آخر.

16

عمت الفوضـى الشارع. وقف سـعيد إلى جانب عمه، ينظر لوالدته وذلك الغطـاء عليهـا. رفض أن يبكي، لأنه أدرك أنه لو بكى الآن، فلن يصـمت مطلقـاً. وقف هنـاك حائرا يرى الأمـور تجري حوله بسرعـة البرق، ثم فجأة، خلا الشـارع ولا يوجد أحد، بعد أن أخذوا جسـد والدته. «لا حول ولا قـوة إلا بالله، إنـا لله وإنا إليه راجعون... إنـا لله وإنا إليه راجعون.» أخـذ «سـيف» يردد. «لا أقـدر.. لا أقدر يـا عمي.» قال سـعيد وهو يدخل سـيارة عمه. «لا تقدر على ماذا؟» سـأله عمه. «أكره أخي على ما فعله، ولا أقدر أن أقول لرجال الشرطة أنه هو من دهسها؟» قال سعيد منفعلاً. «أفهمـك.. ولا أعلم ما الذي عليّ قوله يـا بني، إلا أن ما تنوي فعله يبدو خاطئـاً بدرجة كبـيرة.» قال العم معطياً الخيار لسـعيد، معلماً إياه بأن هنـاك من خطأ فيما يرغـب في فعله، فهو يتفهم أنـه يريد حماية أخيه القاصر، لكن هنـاك الكثير من الأمور العالقة، التي عليه النظر إليها.

ترجـل شرطـي من سـيارة شرطـة وصـلت للتو. أمسـك «سـيف» بذراع «سـعيد»، لكنه أفلت، ونزل من السـيارة حينما رأى الشرطي قادماً. نظر «سـعيد» في عيني الشرطي الذي كان على وشـك التحـدث، ثم قال: «أنا من ارتكب الحادث.» قال الشرطي: «لا.. لست من سبب الحادث.» لم يكن الشرطي قادماً ليسـأل عن الحادث. بدا متعاطفا وهو ينظر إلى «سعيد»: «نحـن متأكدون أن من سـبب الحادث هو أخـاك «محمد» لذا ما من داع لقـول المزيـد في هذا الأمر، جئـت لأخبرك أننا وجدناه بمسـاعدة أخيك راشـد في أحد أزقة البقالات، وجدنا أن...» وضـع سـعيد يده على رأسه،

وقد تساقطت جميع الخيارات التي كان يخطط لفعلها لمصلحة أخيه الصغير، وتبخرت معها روحه الضئيلة ولم تعد موجودة في هذه الدنيا.
بحزم نظر الشرطي في عيني سعيد قائلاً: «لقد قتل نفسه، استخدم علبة معدنية، مقطعاً بها شريان ذراعه اليسرى، نازفاً حتى الموت، ليكن الله في عونكم.»
متسمراً في مكانه، حافي القدمين على أرض الشارع، الذي تنصب حرارة الشمس عليها بلا توقف، ورائحة انحراق لحم قدميه تزداد قوة وهو لا يشعر بأي شيء، مشلول الحركة واللسان. في تلك الثواني كان يحاول أن يفهم ما سمع منذ قليل، لكن يبدو أنه أمر أصعب من أن يَفهمه أحد.

17

لم تحتمل سلمى خبر وفاة أمها المأساوي، وحينما سمعت خبر انتحار محمد سقطت غارقة في حزنها، لم يحتمل أي من: عقلها، جسدها، أو حتى قلبها، ما سمعته. لو كان بإمكان المشاعر التي تكتنز في جسدها الضعيف أن تتحرك لمزقت جسدها، وخرجت ترقص رقصة الحزن الغائر. لم تفارق غرفتها طوال ساعات الظهر الطويلة، راحت تخاطب نفسها: « لَم أذهب معها.. لقد كنت وقحة في حديثي معها... لو ذهبت مع أمي... لو ذهبت لربما ما حدث ذلك، لو تحدثت معها بمراعاة أكبر، لو قبلتها على رأسها، لو مشيت معها إلى الباب، لو... لو... لو...» كانت سلمى حبيسة افتراضات لا نفع لها، مقيدة بأغلال حزن لا يبدو أنه ينوي الرحيل عنها، أسيرة لوديان دموعها الجافة. أما راشد فقد ظن أنه من دفع بأخيه للموت. كان يفكر فيما قاله أخوه الصغير في دقائقه الأخيرة. لم يكن في حالة تسمح له بالتفكير بأن «محمد» إن لم يسمع منه أنه دهس أمه، كان سيسمع الخبر من شخص آخر، والنتيجة ستكون واحدة. لم يكن أحد يتخيل أن ينضج محمد، بشكل مفاجئ، في لحظاته الأخيرة، ويدفعه شعوره بالذنب أن يتصرف بطريقة مختلفة. أفكار لا نهائية يغطيها الإحساس بالذنب كانت تتدافع بلا توقف في ذهن راشد.

رن الهاتف، وقف سعيد وأمسك السماعة وسمع من يقول: «هل هذا منزل السيد زايد؟» كان المتصل من المستشفى، فهناك صوت مكبر يطلب أحد الأطباء إلى الدور الأول. «نعم، هذا منزله.» أجاب سعيد. «لقد طُلب مني إبلاغكم، أن زوجة السيد زايد، ما تزال حية.» قال الرجل على الخط الآخر

من الهاتف. تحاول تلك العبارة أن تعثر لها على معنى في عقل وقلب مرا بأسوأ ما قد يمر به شخص على الإطلاق. بصعوبة فهم «سعيد» العبارة التي زادت عقله تشويشاً. «ما الذي تقوله؟» سأل سعيد وملامح وجهه تتقلص. «أفترض أنها والدتك، إنها سالمة وبخير..لقد أخطأ رجال الإسعاف، لم أكن برفقتهم، لذا لا أعرف الكثير عن الحالة بشكل عام...» أجاب الطبيب، وترك عنوان المستشفى.

تسمر سعيد، لدقيقة، بعد أن وضع السماعة. اقترب عمه وسأل باهتمام بالغ: «مع من تحدثت يا بني؟» التفت سعيد والدموع تترقرق في عينيه: «والدتي حيةّ!» عانق عمه بقوة تنبض أملاً. «كيف... كيف هذا؟» سأل العم مستفسراً. كيف قالوا إنها قد توفيت إثر الحادث؟ كان الأمر غير معقول. «لقد أخطأ الأغبياء! رجال الإسعاف أعطونا المعلومات الخطأ، جعلونا نمر بأسوأ ما يمكن لمجرد خطأ بسيط...» اكتست نبرة سعيد بغضب جعل عروقه تخطط جبهته. «لأنهم لم يقوموا بعملهم فحسب... وأخي محمد، قتل نفسه... لأنه...» أجهش سعيد في البكاء، وكل دمعة تسقط على خدّه تتبخر لشدة حرارة جسده. ضمه عمه إلى صدره. «احمد الله.. يا بني على ما تبقى لنا... إنا لله وإنا إليه راجعون...» أخذ العم يهدئ من توتر سعيد الذي لم يكن يصدق أن تكون الأخطاء البسيطة ثمنها فادح على هذا النحو، ولم يكن يستطيع أن يصدق: «كيف يقولون إنها قد فارقت الحياة، وهي ما تزال حية؟ فوضى و إهمال، هل تأكدوا من نبضها على الأقل؟ ما الذي فعلوه يا ترى... نظروا إليها فتنبأوا أنها قد توفيت؟».جميع الأحاسيس والمشاعر.. وما نتج عن ذلك الخبر المزيف، لا يساوي شيئاً مقارنة مع تلك الروح التي فارقت الحياة بإرادتها الضعيفة.

سمعت «سلمى» الضجة خارج غرفتها، هرعت متوقعة الأسوأ. كان ما سمعته من فم أخيها سعيد، لسيئ وجيد في الوقت نفسه. غضبها انبثق خلال ستائر الأمل الخافت. مرت بأسوأ ما يمكن أن يحدث. تناقصت

شدة غضبها، حينما فكرت بأن أمها ما تزال حية. بعد لحظات تلاشت ابتسامة خجول كادت أن تشرق على شفتيها. اندثرت حينما فكرت بما قد يحدث لوالدتها حينما تعلم بأن محمد قتل نفسه، بل حتى إنه هو من دهسها بالسيارة..ومن ثم سلب روحه بنفسه إثر شعوره بالذنب.

استعدوا للذهاب إلى المستشفى. كانت سلمى تقف هناك، ورغبتها في الذهاب أقوى منها، إلا أن وجود عمها كان يفوق قدرتها على الاحتمال، فلم تنس ظلمه لهما عندما فرض على إحديهما أن تتزوج من سالم، لكن وجوده معهما في الكارثة ألان قلبها قليلا. «ألن تأتي معنا يا سلمى؟» سألها العم بعد أن غادر راشد وسعيد على عجل. «لا.» قالت سلمى بإيجاز. «تعلمين أني سأبقى إلى جانبكم دائماً؟» نبرة الصدق كانت تسرى في صوته.

«يجدر بك الاستعجال.»

18

رائحة المستشفى تبعث على الغثيان. ازدحام في الممرات والأقسام. كان كلٌ من سعيد وراشد وسلمى يشعرون بأنهم جزء مما حدث. سعيد يلوم نفسه، لأنه لم يكن صارماً بشكل كاف فيما يتعلق بقيادة السيارة، وراشد يكره نفسه ظنا أنه هو من دفع أخاه لقتل نفسه، وكان يحاول الانخراط في القلق حول والدته، كي لا يبدأ بلوم نفسه على ما حدث لأخيه، أما سلمى فلا تكف عن التفكير في علاقتها بوالدتها، التي لم تكن جيدة يوماً، نادمة أن محمد دخل حياتها وخرج ولم تعرفه كما يجب. أرادت إعادة الزمن للخلف كي تمنعه من الاختلاء بنفسه، تشعر برغبة قدميها في اللحاق به، وهو يجري هاربا من البيت بعد أن عرف أنه دهس أمه، جزء منها لا زال يرغب في منعه من الابتعاد.
يتقدم الطبيب نحو سعيد، وقبل أن يفتح فمه ليتحدث سأله راشد بلهفة: «كيف هو وضعها؟» ارتسمت ابتسامة متواضعة على شفتي الطبيب، فيما يعرّف بنفسه، ثم تنهد قائلاً: «كما تعلمون، كنت المشرف على الوالدة، يمكنني القول إن حالتها شبه جيدة الآن والحمد لله، لقد خسرت الكثير من الدم إلا أننا قمنا بنقل دم لها فور إحضارهم لها، هناك كسور عديدة في جسمها، لكن الرأس لم يصب، والآن يتم تجبير الكسور...» نظر سعيد إلى الطبيب وقد كانت عيناه تكبران كلمة بعد الأخرى قائلاً: «أيها الطبيب، حين وقوع الحادث، قيل لنا أنها توفيت! كيف لهذا أن يحدث...» أصمته عمه بنظرته الهادئة، ثم حول نظره إلى الطبيب قائلاً: «الحمد لله على سلامتها، كل ما كان يريد قوله، هو أننا مررنا بأسوأ

مـا يمكن، لخطأ تافـه، كيف لذلك أن يحدث؟» أخـذ الطبيب يتلفت يميناً ويساراً بخفة، وقد بدا عليه أنه متعجل بعض الشيء. «لا يمكنني الإطالة أكـثر، هناك مرضـى علي بمعاينتهم فوراً، كل مـا يمكنني قوله.. هو أنه لا يوجد تفسير عادل، إن ذلك الخطأ ليس شائعًا على الإطلاق، لا يمكننا سـوى تقديم الاعتذار لما سـببناه لكم، ونحمد الله في جميع الأحوال...»
نظر سـعيد للطبيب وكان الغضب باديا على معالم وجهه. «سأرسل لكم ممرضة تدلكم على غرفة الوالدة كي تزوروها لاحقاً. لا يمكنكم زيارتها الآن، فهـي تخضـع للمعاينـة، والتجبير..كمـا أنهـا تحتاج لقسـط من الراحة. يؤسـفني ما حدث لأخيكما، إنـا لله وإنا إليه راجعون... اعذروني عليّ بالانصراف الآن».
تسـاقطت قطـرات الدمـوع من عيني سـعيد وراشـد، ولم تلبـث أن جفت سـيول أحاسيسـهما، وتحولت إلى وديـان خاوية، فقد بـدا أن دموعهما كانت حزنا على أخيهما من جانب، ومن جانب آخر على الضـياع الذي يشعران بأنهما ينتميان إليه. قَدمت الممرضة ودلتهم على غرفة الوالدة، وأخبرتهـم بأنهم يعملـون على تجبير كسر قدمها اليسـرى. «إذا يمكننا زيارتها عصر هذا اليوم؟» سـأل راشـد. «سـنزورهـا العصر إن كان ذلك مسموحاً أم لا.» قال سعيد غاضـبا. انصرفت الممرضة على الفور، بعد أن أخبرت راشد أنه يمكن زيارتها عصراً كما اقترح.
كانت السـاعة الواحدة والنصـف عندما قال العم: «سـعيد وحارب أنتما اركبـا السـيارة معـي، ويا راشـد قـد السـيارة الأخـرى إلى وجهتنا مع أبنائي. سنذهب الآن لترتيب جنازة محمد رحمه الله، سيتم دفنه الساعة الثالثة بإذن الله، علينا التعجيل في دفنه احتراماً له. ما حدث لأمر غاية في الفظاعـة، ولكن أياً كان...هذا هو يومـه، ولا يوجد من كان بمقدوره تغيير ذلك.» كان العم يكبح حزنه بشكل بارع.

19

في فقاعــة حــزن تتخبط كمــن فقد بصــره، تتلمس ما حولهــا، فجأة لم تعد تسـمع سـوى صدى الهدوء القابع في فضــاء محيطها، لم تعد تسمع أنفاسها المفعمة بالهموم، لم تعد تسمعها على الإطلاق، حينها تساءلت مــا إن كانت حية أم ميتة؟ صــاحية أم نائمــة؟ لم تكن تدرك أنها تعيش اللحظة لأقصـى درجــة، لدرجة أنها نسـيت أنها تعيش اللحظة، عقلها توقـف عن احتواء ما يحـدث، لأنه كان يفوق قدرة عقلها على الاحتواء، وصـمامات قلبها توقفت عن ضـخ المشـاعر في أرجاء جسدها الجاف. كانــت فحسـب تعيش اللحظة...اللحظـة التـي حتـم عليها أن تعيشـها لأقصـى درجة، أمامها هناك تضـجع خيارات كثـيرة، خيارات لا تبدو كالخيـارات...لا. بـل إنهـا ليسـت بخيارات، لأنــه يجب عليهـا اتخاذها جميعها شاءت أم أبت.

اقتربت سـلمى من الهاتف، أمسـكت السـماعة، وحينما وضعت أناملها على أرقام الهاتف، نسيت بأي رقم تبدأ، بعد لحظات تمكنت أناملها من إيجاد طريقها إلى الأرقام التي تمثل هاتف شما. رن الهاتف رنة واحدة فأغلقت السماعة بسرعة، ورغبت أن تختفي من الوجود في تلك اللحظة. لا تملك القوة الكافية لمصــارحة نفسـها بحقيقة ما حدث، فكيف لها أن تصارح أختها. يحتل الألم شوارع قلبها معلناً رفضه، لطلب تلك الأروقة والناصـيات الاستقلال. لا... لا تقوى على إخبار أختها بما حدث. اقترب عمهـا «سـيف» وتناول الهاتف، وأعــاد طلب رقم ابنه سـالم...بلا تردد. ووقف منصتا لحظات، عندما رد عليه صوت أنثوي: آلو..». أغلق الهاتف

وخرج غاضبا.

كان من الصعب على سلمى أن تكون من يخبر شما بالمصيبة، لكن ذلك ليس صعبا إذا ما قورن بما أطاح بقلبها؛ فحينما كانت تقف على رجليها بعد أن خضعت لقوة ضعفها، التي منعتها من الاتصال بأختها، رأت والدها على الكرسي المدولب خارجاً من غرفته، وما أدهشها هو ذلك التعبير الغريب الذي كان مرتسماً على وجهه. لم تُعر سلمى اهتماماً لاستخدامه الكرسي، بقدر ما اهتمت بذلك التعبير الذي كان من الصعب عليها تجاهله. خرجت الخادمة من غرفة الوالد متعجلة، تحمل بعض الصحون، وقد بدت على غير طبيعتها، فعرفت سلمى أن والدها يعرف ما حدث، فلابد أن الخادمة أخبرته بما شهدت. كانت تتهرب من إخبار أختها بالحادثة المريعة، يبدو أن ما تتهرب منه أتى إليها على كرسي مدولب.

تصلبت قدما سلمى، إلا أن لسانها كان على ما يرام: «أبي، هل اقتنعت بالكرسي المدولب أخيراً؟» كان من الواضح أنها لا ترغب في سماع إجابة، وقد سألت لمجرد تشتيت فكر والدها، وكي ترتب ما ستقول، لتتجنب ما قد يفلت لسانها به. «لا أريد التحدث عن هذا الأمر.» تجبر سيقانها على التحرك تجاهه قائلة: «لمَ أنت عابس هكذا؟» فضّلَ الصمت. إجابته تتضح في سُمك خطوط جبهته، فيما بدا على «سلمى» التوتر وهي تقول: «هل تود أن تخرج في نزهة في الساحة الخلفية للمنزل؟» أجاب بحسم: «لا». اقتربت سلمى منه وعضلات وجهها متضاربة تماماً، تبغي أن تبتسم سروراً لرؤيته أخيراً خارج غرفته، وأن تبكي حزناً على ما حل بهم من مصيبة. وضعت يديها على قبضات الكرسي المدولب وهي تنكر احتمال معرفته بما حدث. كانت مصيبة عندما رأت أنه يمكن له أن يتحمل الخبر، عكس إخوانها الذين ظنوا أن والدهم لن يتحمل الصدمة، وأنه في غنى عن معرفة أي شيء في هذه المرحلة. لم تكن واثقة تماماً من رأيها، لكنها الآن ترى أنه صحيح، كأن تحوّلا نفسيًا

جعل منه شخصاً آخر. ثقب الوالد جدار صلابتها الهشة بقوله: «إني على علم بما حدث يا سلمى، ما من داع للنزهة».

20

استقبلتها بابتسامة محطمة، بعينين متعبتين وبذراعين محبين. كانت سلمى بحاجة لذلك العناق الدافئ الذي منحته لها خالتها. غمرهما الود وبقيت كل واحدة تنثر الدموع على كتف الأخرى. استرجعت «سلمى» المشاعر التي غزت كيانها حينما علمت بالفاجعة. كاد جسدها الضعيف أن ينزلق ساقطاً على الأرض. «الله يرحمه... الله يرحمه...» أخذت الخالة تردد بلا توقف. «لقد أتيت لمعاونتك يا سلمى، ومواساتك يا ابنتي... عمك وأخيك سعيد وابني حارب ذهبا لترتيب أمور جنازة محمد رحمه الله». نظرت سلمى إليها وسألت «عمي من طلب منك المجيء، أليس كذلك؟»

أجابت خالتها: «نعم ولقد أوصلني لتوه.»

تعلم الخالة أن علاقة سلمى بعمها لم تعد كما كانت، وأدركت أن سلمى سُرّت حينما علمت أن عمها مهتم بأن لا تكون وحيدة في هذه الأثناء. « كان غاضباً جداً، بعد أن أغلق الهاتف المتحرك وأعاده لجيبه.» قالت الخالة. «لماذا لم تسأليه عن هوية من كان يتحدث إليه؟» سألت سلمى. «لمَ أسأل وأنا أعرف هوية ذلك الشخص؟». نظرت سلمى بحيرة لخالتها تطَلب توضيحاً: «من؟ ولماذا تجزمين أنه غاضب من ذلك الشخص بالتحديد؟» أجابت خالتها: «طلب رقم ابننا سالم، تعلمين...، ليخبره بما حدث، وليأمره بالمجيء هو وشما معه..ولكن؟» صمتت لبرهة ثم تابعت حديثها: «أجابت على هاتف سالم امرأة غريبة و... لا يجدر بي إخبارك بأي من هذا... سلمى، هل تحدثت مع شما؟» ازدادت سلمى حيرةً: «ما الذي يحدث؟ أخبريني بما تعرفين يا خالتي؟» تنهدت خالتها:

«لا أعرف أكثر مما قلت لك صـدقيني... الآن، دعك من هذا، أخبريني هل تحدثت مع شـمـا أم لا؟» أجـابت سلمـى: «طلبت الرقم، أمسكت بـالسماعـة، لكني أغلقت السمـاعـة في نـهـاية الأمر، لم أقو على إخبـارهـا بمـا حدث».

ضـمتها خالتهـا بقوة ثـم أفلتتها وقالـت: «لا عليك، عمك سـيهتم بهذا الأمر.» كـادت سـلمـى تبكي وهـي تقول: «لقد اتصلت هذا الصبـاح خـادمة شمـا و...» تـابعت كلامهـا: «كـان الاتصـال غريبـاً، فقد طلبت مني أن أسأل أختـى شـمـا زيارتنـا؟» عينـا الخـالة تكـبران كلمـة تلو الأخرى: «والأغرب. أنهـا عـاودت الاتصـــال ثـانية... أعتقد أنها هي من اتصـل، لم تقل شـيئاً ثم أغلقت السـمـاعـة..» تشـابك حـاجبا الخـالة وهـي تقـول: «غريب جداً؟» قـالت سـلمى وهـي تتنـاول قطعة محـارم تمسـح بهـا دموعهـا: «لست أفهم أي شـيء ممـا يحدث؟ أنـا قلقة على أختـي... لا أظن أنها علـى مـا يرام، لم تتصـل منذ وقت طويل... واتصـالاتهـا أكثر إثـارة للقلق من غيابهـا.» نظـرت خـالتهـا في عينيهـا بحـزم وقـالـت: «نحن كذلك لم نتواصـل مع سـالم، أو بـالأحرى لم يكن بـالقرب من هـاتفه مطلقـاً، على أية حـال أعدك أن أتولى معرفة كل مـا يحدث».

سـألت الخـالـة على عجل وقـد ظهر عليهـا التوتر: «هل يعلـم والدك...؟» أومـأت سـلمى رأسـهـا قـائلة: «نعـم، لقد حدث للتو مـا لم أعتقد يومـاً أنه سـيحدث...» تجهم وجه الخـالة. وقفت سـلمـى قـائلة: «خـرج من غرفته.. كـان هنـا منذ قليل على الكرسـي المدولب، لَم أعتقد أنه سيتقبل المصيبة بذلك الشـكل يـا خـالتي!» وضـعت الخـالـة يدهـا على كتف سـلمـى برفق: «هل هذا صحيح؟

كيف حدث هذا؟

بل... كيف اسـتطعت إخبـاره؟ ألم تتفقوا على ألا تخبروه بـأي شيء حتى وقت لاحق؟!» نظرت سـلمى لخـالتهـا قـائلة: «لسـت من أخبره يـا خـالتي، أعتقد أن الخـادمة من فعلت، لا يعلم أحد أن والدي مدرك لكل مـا حدث... ولا أظن أن سـعيد سـيسر بذلك». دفنت الخـالة وجهها في كفيهـا وأخذت

تبكي. سألت سلمى: «هل أطلب منه المجيء؟ أم نذهب إليه..؟» مسحت الخالة الدموع عن وجنتيها (بشيلتها) وقالت: «دعيه يأت... كفاه ضعفاً».

21

وقف سالم يسيطر عليه الغضب قائلاً: « كيف لك أن تجيبي على الهاتف؟ ألم تري أن والدي هو من يتصل.» التزمت فاتن الصمت لبرهة ثم قالت: «لَمْ أنتبه... أرجوك سامحني.» أخذ سالم بلملمة أغراضه وغادر الشقة قائلا: «عليّ إيجاد عُذرٍ ما... لإصلاح خطأك الغبي هذا!» عندما جلس في السيارة، أمسك بهاتفه، وطلب رقم هاتف أبيه. لم يكن يعرف ما يجب عليه قوله، وقد تعارض غضبه على فاتن مع شعوره تجاه اتصال أبيه، أحس بأنه لا يعير أي اهتمام للتفسير الذي كان سيطلبه أبوه لعدم رده على اتصالاته مؤخراً، وعن هوية المرأة التي أجابت على اتصاله. لم يشعر بالتوتر ولم يهتم بما سيظن والده. لقد فاجأ سالم نفسه ببرودة أعصابه وعدم اكتراثه بكل ما يتعلق بوالده، حتى عندما افتتح والده الحوار في الهاتف قائلا بغضب: «سالم...من تلك المرأة الغريبة؟»

ما زال عدم الاكتراث يصاحبه، واللامبالاة تلف صمته كأنه استغرب سؤال أبيه. في الاتصالات السابقة كان سالم دائم الكذب فيما يخص تفاصيل حياته، وقد أوهم أباه بأنه يعيش الحياة الهانئة. لكنه بهذا السؤال عرف أن والده لم يصدق يوماً أكاذيبه.

«من تلك الغريبة التي أجابت على الهاتف؟» كرر السؤال بغضب أشد. «ما الذي تقوله؟» استنكر سالم سؤال أبيه بجرأة. أجبره صمت والده على أن يجيب: «المرأة الغريبة؟ آه... نعم إنها زميلة في العمل، وقحة جداً... لست أعلم كيف تجرأت على الرد على هاتف ليس ملكا لها!» سكت سالم لبضع ثوان فسمع أباه يتنهد وقد شعر بأنه رضي بذلك الجواب الذي ابتكره

دونما تفكير، ناسيا أن اليوم إجازة، وبنبرة صدمة مصطنعة: «أبي؟ هل اعتقدت أني... كيف لك أن تفكر بهذه الطريقة بي؟» شعر سالم أن عليه تدارك الأمر، لتبرئة ساحته، من شكوك والده، التي برزت للتو. صمت الأب لبرهة، لا لأنه لا يعلم ما سيقول...بل لأنه تفاجأ من أن ابنه يكذب بثقة متناهية. كانت لديه الإجابة المثالية التي قالها ببطء لتحطم تلك الثقة الهشة: «بعد أن وجدتك مع تلك الخادمة...لا أستغرب أن أجدك عند أي ساقطة أخرى، ولا أرضى أن يفعل ابني ذلك بتاتاً.»

صمت محرج انبث في الجو. تدارك سالم الأمر وأخذ يقول: «لم أسألك عن أحوالك وأحوال الوالدة والإخوان؟» نبرةٌ جديدة...متوترة ومنخفضة عن تلك الدفاعية. «عساكم بخير؟» يسأل سالم، فيجيب والده بأسى: «لسنا على ما يرام...عليك بالمجيء فوراً إلى هنا، خالتك تعرضت لحادث و ابنها محمد...توفي».

22

وقفت عند عتبة حجرة والدها. ما يزال جالساً على الكرسي المدولب. نظرت إليه وبريق الأمل حيٌّ من جديد في مقلتيها. التفت إليها وقد بدا عليه عدم الارتياح في الكرسي كأنه يحاول التعرف عليه. إنه أمر كان يجب عليه القيام به منذ وقت طويل، كي يخرج من قوقعة الماضي وينقذ روحه من الموت البطيء، الذي يحيط بيديه السوداوين رقبة الحياة في أرواحنا. «خالتي هنا و تريد رؤيتك؟» بلطف قالت وهي تتساءل ما إن كان سيرضى بالخروج أمام خالتها بالكرسي المدولب. أدركت أنه إن فَعل ذلك، فإن الكثير بداخله يكون قد تغير. ثنى ذراعيه ووضعهما على العجلتين ليتمكن من التحرك للأمام، لكن يديه كانتا ضعيفتين، والكرسي لم يُستخدم كثيراً. أسرعت سلمى تدفعه، بعد أن التمست القبول منه، وقد شعرت بأنه قد عاد إلى الحياة. نقطة أمل برزت وسط أحداث مفجعة، حينما بدا لها أن والدها يتقبل الأمر بشكل حسن، وأنه اتخذ قراراً بالنهوض من قبره والمضي في الحياة بلا ساقين.

تمسح الخالة «نورة» دموعها، وهي تقف في الصالة مترقبة، توقفت عن الحركة حينما رأته يطل من الغرفة ذابلاً ومتعباً، تصلب جسدها وظلت حبيسة صمت للحظة. بعد تبادل عبارات التحية والعزاء، شعرت سلمى بأنه مستاء من الجلوس في الكرسي، وبدت عليه الرغبة في النزول عنه، سألته إن كان يريد ذلك، أومأ برأسه موافقاً. أمسكت ذراعه بلطف، فهمّت خالتها لمساعدتها حينما رأت أنها تجد صعوبة في حمل جسده الهزيل المملوء بالهموم والمشبع بالحزن الصامت. كانتا على وشك إجلاسه،

فنفض يديه مبعدا عنه أيديهن، وهو يقول بنبرة أسًى رمادية تعيد لجسده الذابل لونه: «لا...أريد رؤية ابني! أريد رؤيته!».
استيقظ داخله الأسى، وحزنه الكبير على ابنه، فجأة: «أين كنتم حينما حدث ما حدث... لو.. لو كنت... أريد ابني... ابني!» وضعت سلمى يدها على ذراعه وشعرت بيدها تغرق في لحم ذراعه اللين. توقعت بينها وبين نفسها أن يحدث هذا: «ستراه.. ستراه يا أبي... ستراه، إنا لله وإنا إليه راجعون.» مال جذعه ومالت روحه معه، تمالك نفسه. صمت ثم تكلم، لكنه لم يقل الكثير. كان خائفاً أن يطلق العنان لمشاعره وحزنه لرحيل ابنه، خائفاً ألا يتوقف عن البكاء إن بكى، وقد بكى الآن ورمى برأسه في عش أفكار يائسة. أخذ يردد بلا توقف:
«إنا لله وإنا إليه راجعون.. إنا لله وإنا إليه راجعون..».
فكرت سلمي أن تخطيه للصمت وإدراكه لما حدث لابنه محمد، لا يعني تخطي الأمر، فنحن نحزن حينما نعلم أن شخصا غريباً توفي، لأنه روح أغلى من أي شيء. نتشاطر المشاعر الصعبة، نحزن ونختبر ما تحمله مشاعرهم من أسى، لكن حينما يحدث ذلك لنا، فالأمر مختلف، فشتان بين أن نتحدث عن مأساة أحد، وأن نعيش المأساة. حزنها يكبر، وهي تفكر بأنه خسر ابنه لا في هذا الصباح، بل منذ سنوات طوال. يا لها من خسارة أنه لم يتعرف على هوية ابنه الحقيقية. كان «محمد» صغيراً حينما تعرض الأب لحادث السيارة، وبقي حبيس حجرته مستسلما لما يدور في فكره. غادرت سلمى الصالة متوجهةً إلى غرفتها، لا ترى شيئاً أمامها، لشدة ما تحويه عيناها من دموع، جرفت بريق الأمل الذي أحاط بمقلتيها وازهرار خديها تاركة إياهما شاحبي اللون.
لم يبك «زايد» على ابنه فقط...وعلى حالته المزرية، بل على حياة أخرى...لم يجرؤ عن سؤال أخت زوجته عنها، في حضور سلمى. عائلة أخرى هجرها، ولم يعرف عنها شيئا من يوم الحادثة. بعد فترة صمت، التفتت «نورة» إليه وقالت وقد تملك الضياع صوتها:«ربما لا يكون هذا

هو الوقت المناسب، ولكن عليك أن تتفهمني.. ينبغي عليّ أن أسألك.. هل تعلم عنهم شيئا؟ وهل تحدثت معهم منذ حادث السيارة؟».

23

يشعر بثقل كبير للعبارة التي ختم بها والده المكالمة: «أخبر شما بما حدث.» كان سالم ضائعا في أفكاره، يتخبط كالأعمى. صعب على عقله فهم ما حدث. وصل إلى منزله لا يعرف كيف وصل. ترجل من السيارة، مدركا حينما وضع قدمه على الأرض أن كُل ما قاله والده لحقيقة، وأن عليه أن يخبر تلك الحقيقة بكل ما تحمل من قسوة لزوجته. كان في حيرة، فهو لا يقوى على تصديق شيء، فكيف سيخبر شما.

أصابه الضعف وهو واقف أمام عتبة بيته. أدرك أنه لا مفر من الأمر؛ فهو في نظر والده الزوج الصادق، ورفضه لإخبارها بما حدث لبيان بحقيقة حياته المزرية. دخل سالم منزله محاولا أن يتغلب على ضعفه، مبعدا تراجعه عن إخبار شما من ذهنه. بدا كل شيء مريعاً في عينه، لحظة ما فتح الباب. هدوء مخيف يرتعد أيّ قلب من قوة فراغه. أسقط تلك الأفكار السيئة وهو يهز رأسه منطلقاً نحو الطابق العلوي، نحو شما. بدت خطواته في بداية سيره واثقة مطمئنة، ولكن ما إن وضع قدمه على الدرجة الأخيرة حتى بدأت ثقته تزول رويداً... رويداً. سمع صوت بكائها كصوت جريح حرب يحتضر، فتهدمت القوة التي قد لملمها. خطوة واحدة ويطل على ذلك الجريح الذي لا يبدو أن هناك من دواء له، وها هو يُقدم على تلك الخطوة.

تضع قطعة ملابس لم تُلبس يوماً تلو أخرى داخل حقيبتها المرمية على السرير. تنظر إليه وغضب متقد في مقلتيها يشتعل، ثم تكمل لملمة أغراضها، دون أن تنطق. الدموع تنصب من عينيها بلا توقف.

يستغرب سالم غضبها. سأل وهو يتوجه نحوها: «ما الذي تفعلينه؟» لم تُعره أي انتباه وتصرفت كأنه ليس موجودا. عاد يسألها: «شما؟ لم تجهزين حقائبك؟» كاد يستنتج الجواب بنفسه حين رآها تستمر في تجاهله كأنه شبح. سئم من تصرفها، دفع الحقيبة أرضا فتناثرت الملابس. للحظة كانا قريبين جداً، وسط عاصفة غضبها المفاجئة تلك، وأحست، مرة أخرى، بكرهه لها يخترق جسدها. تنظر شما لتلك البثور الصغيرة التي تتجمع أسفل عينه اليمنى، ثم تحول نظرها لعينيه وهي لا تتوقع سوى السيئ.

ابتعدت عنه مسرعة نحو الحقيبة، تلملم قطع الملابس، مصرة على ما تفعل. كان من الواضح أنها تحضر نفسها لمغادرة المنزل، إلا أن ذلك لم يكن خياراً تقدم على اتخاذه، بل كانت الأحزان خلف دموعها هي التي تدفعها إلى فعل ذلك. صمت قليلاً، يحاول استيعاب الأمر. كيف لها أن تصمت طوال ذلك الوقت وتندلق بتجاهلها وغضبها فجأة وبكل جرأة؟

كان يعتقد أن أي شيء تفعله لإظهار غضبها، هو أمر غير مقبول بتاتاً. اقترب منها، وكانت قد جلست على ركبتيها، ويدها تمتد هنا وهناك، وقال بصوت متكبر خال من أي تعاطف: « أتعلمين؟ يجدربك

لملمة أغراضك على أية حال... لست أعلم لم أمنعك؟ فأنت ستفعلين هذا، اليوم بالتحديد».

24

رغبة «زايد» في أن يعرف شيئا عن أحوال أسرته الأخرى، وخوفه في نفس الوقت من طرح السؤال كان واضحاً عليه كإعاقته. رفع عينيه، جاهلا ما سيقوله، وما إن فتح فاه ليسأل حتى أخذ يبكي كصبي: «لا أدري...هل تعلمين أنت عنهم شيئاً؟ هل تعلمين ما إن كان سالم يعتني بهم؟ أرجوك... أجيبيني؟» تركت «نورة» الصمت يجيب عنها، بعد أن علمت أن زوج أختها لا يعرف أي شيء مما حدث لهم بعد إصابته في الحادثة. وأدركت أنها أخطأت عندما سألته عنهم.

كان «زايد» قد تزوج من امرأة مطلقة لها طفلان، تعمل معه في الدائرة الحكومية، زواجاً رسمياً في المحكمة، وقد اتفق معها قبل الزواج على إخفاء الأمر. تعرف عليها، في بادئ الأمر، عن طريق زوجة أخيه، فقد كانت صديقة لها، وقراره بالزواج بتلك المرأة، لم يكن للخالة حيلة بردعه عن فكره. اعترضت في بادئ الأمر، لأنها بذلك تخون أختها، لكنها وافقت بعد أن رأت أنه عازم على ذلك الزواج بشكل قاطع، ولن يغير اعتراضها أو موافقتها أيّ شيء. كانت وما تزال تدرك جيداً أن أختها ستتأذى إن علمت بالأمر. كان «زايد» يرى أن زوجته مهملة له ومن حقه أن يتزوج مجددا بامرأة يعتني بها والأهم تعتني به. كان شاباً نوعاً ما، حينما أقدم على الزواج مجدداً، وكان سؤال أخت زوجته عن رأيها في ذلك الزواج، كان طريقة لجعلها تشتبك معه في الأمر، لعلمه بأنها ستراه في منزل صديقتها، وحينما سألته عن السبب الذي يدفعه لإخفاء زواجه، صمت ولم يناولها أية إجابة.

علم سالم بذلك الزواج صدفة حينما سمع عمه، في أحد الأيام، يتحدث مع والدته عن زوجته الثانية. واجههما بالأمر واعترافا بالحقيقة. في بادئ الأمر لم يكن لسالم موقف محدد من الأمر، لم يفرح لذلك ولم يحزن، تساءل عن الأسباب وحصل عليها. فكر ملياً وحاول إيجاد منفعة له من تلك الدوامة. ذهب إلى عمه يوماً، وأخبره بأنه يريد التحدث معه. تعجب «زايد» من حضوره، وتعجب أكثر من تلك اللهجة الجريئة التي كان يتحدث بها «سالم»: «اعذرني يا عمي، لكني سأخبر خالتي بما يحدث...» ارتعش جسد «زايد» لدقيقة ثم قال: «سالم! أعلم بأنك لا تحتمل إخفاء شيء عن خالتك، ولكن تفهم وضعي.. اصبر...» هز سالم رأسه وارتسمت ابتسامة ساخرة خبيثة على وجهه. رفع عينيه وثبتهما على عمه وقال متهكماً: «لا.. ذلك ليس السبب، بل ليس هناك أي سبب على الإطلاق، آسف على ما سأفعل.. سأخبرها إن لم...» وقف زايد وقال بتردد: «انتظر.. ستخبرها إن لم؟ ما الذي تتفوه به... ما الذي تقوله يا سالم؟ أتبتزني.. أتريد مالاً.. أم ماذا... أنا عمك!» قال سالم بهدوء: «لا تتعجل الأحداث يا عمي، أنا مصر على قولي وسأفعل ما أقول، صدقني، إنه ليس ابتزازاً.. ربما تعتبرها تجارة، كما أراها، لكن من نوع آخر. اجلس كي تقدر على فهم الأمر.» جلس زايد يكاد لا يصدق ما يسمع. تنهد سالم وقال: «نعم.. سأخبر خالتي بأمر زواجك بأخرى عليها إن لم تفعل ما أقوله الآن. لا أعلم لم تخاف من معرفتها بالأمر! ولكن ذلك لا يهمني على أيّة حال.» صمت العم لبرهه وهو يحاول إدراك تلك الكلمات، وحقيقة أن سالم ليس سوى حقير يدعي البراءة، يظهر كأنه الرجل الصالح.. الطيب أمام الناس، لكن من يقترب منه يدرك عكس ذلك. «دعنا ندخل صلب الموضوع الآن يا عمي، لا أريد مالك. أريدك أن...» قاطعة الأب بنبرة غضب قائلاً: «لن أزوّجك سلمى.. ذلك لن يحدث!».

25

جفت الأحاسيس في قلبه، وكالعادة كان جافا خاليا من التعاطف، وهو يحاول إخبار زوجته بأسوأ خبر قد تسمعه يوما. لا يستطيع تخمين رد فعلها، فهو لم يجالسها، لم يتعامل معها كزوجة طوال أشهر، لم يتحدث معها سوى في الأمور الخاصة بالمؤونة. منذ بداية زواجهما وهو مصر على ألا تكون زوجته، وكان خجلها الخائف المحفوف بالصمت يخدمه بصورة مريحة. أحيانا، كان من الصعب عليه ملازمة قراره الذي يسوقه الغضب؛ فشما فتاة جذابة، ولم يكن بالأمر السهل، عندما يعود ليلا، أن يتخطى السرير الذي تستلقي عليه، شبه نائمة مرتدية ما يجعله على وشك أن يتخلى عن قراره، نحو فراشه في نهاية الغرفة.

مازال سالم يقف في مكانه، يعبر عن قسوته وعدم مراعاته لها، بحديثه عن أنها ستجهز الحقيبة الآن أو في وقت آخر. أصابت الجملة شما بقشعريرة، أصبحت حركتها بطيئة، ثم توقفت عن جمع ملابسها، نظرت إليه وقالت: «لماذا؟ ماذا تقول؟». أصدرت ملامسة يده لوجهه صوتاً مزعجاً، كما لو أن خشبة لامست وجهه. كان يحاول محو التوتر الذي اعتراه عندما شعر بثُقل مسؤولية إخبارها بما حدث. أجبرها الفضول الذي أثاره في داخلها أن تقف وتسأل: «ما الذي تعنيه؟.. سنذهب.. سنذهب للأهل.» وشى صوتها بطيف من الفرح وهي تسأل مندهشة. قال بغضب مستتر حينما شعر أنها مسرورة: «تعلمين أني لا أجد الوقت الكافي لأخذك للأهل، وأنا غارق في العمل هذه الأيام، ولست آخذك إلى هناك هذه المرة سوى لغرض ما.» رآها تعاود لملمة ملابسها

غير مكترثة، مما أغضبه وجعله لا يتردد في اقتلاع الفرحة التي بدأت تغشاها. قال كأنه يرغب أن يتخلص سريعا من حمل ثقيل: «أخوك محمد قد مات، ووالدتك ترقد في المستشفى.»

كانت الطريقة التي اتخذها ليعلمها بالخبر شديدة القسوة، لم تحرق السرور البازغ في روحها فحسب، بل أحرقت روحها. تطلب الأمر أن ينظر إليها نظرة واحدة ليعلم أن الطريقة التي استخدمها سيئة جداً، بل أدرك، حينما رأى أن جسدها يميل إلى الزرقة، أن الخبر صعقها. تملكه الخوف حينما رأى أن جسدها قد تصلب كصخرة، ولسانها تيبس. أعاد المشهد إلى ذهن سالم المشاعر السيئة حينما سمع الخبر من والده:

«شما، هل أنت بخير؟ شما... أجيبيني..؟»

حاول الاقتراب منها، إلا أن صرختها أبعدته، وأخذ يقول: «شما؟ تمالكي نفسك؟ إنا لله وإنا إليه راجعون...

لا يمكنني أخذك لعائلتك وأنت هكذا؟»

لا تجد كلماته طريقها لأذن شما، خلال فوضى صراخها العشوائي. حاول تهدئتها بكلمات لا تعني لها شيئاً: «أرجوك توقفي؟ شما.. توقفي..» وقفت شما وأخذت تسأله والدموع تنهمر من عينيها: «كيف حدث هذا؟ سالم.. لا.. لا يمكن أن يكون ما تقوله حقيقه... أخي.. أمي.. علي بالذهاب لهما فوراً..» أمسكت بيده فجأة وقالت وهي تحتضنها بألم «خذني لأمي.. أريد أمي..» ارتعش جسده لبرهة واقتحمته قوة شديدة يبثها ضعفها المرير.

26

أجبرهـا «زايـد» بنـبرة صـوته المتألمـة ويحتـه الحزينـة أن تخـبره بأحوالهـم. بدا أن صـمت الخالة يقـول الكثير، وقد ظـن في تلك اللحظة أنه سيسـمع أمرا سـيئاً. في أعماقه يشعر بأن أمرا سيئا قد حدث لهم. ما تريد «نورة» قوله من الصعب البوح به، ولا تعرف ما إذا كان سيتحمله: «هل تريد حقاً السـما ع إلى ما سأقول؟» قال بنبرة ترقب: «نعم.» عادت لصـمتها ثم سـألت مجدداً والتردد يحف بالكلمات: «لا أرى بأنه الوقت المناسـب..» أجبرها على إطلاعه علـى الأمر حينما وجه عينيه لعينيها: « لقد فسخت عقد الزواج في المحكمة منذ سنتين، ورحلت من الدولة بعد أن... « اخترقـت نظرة عينيه جسـدها فقالت بلا تـردد: « بعد أن تزوجت من أحدهم».

صـعد «زايد» على كرسيه المدولب بصـعوبة وقال بينما يغادر الصالة: «هذا كل ما أحتـا ج لمعرفته.» لم تقو نورة على قول كلمة واحدة للتخفيف من حدة الأمر وتأثيره على زوج أختها. لقد أحبها كثيراً، إلا أنها لم تحبه مطلقاً، لم يكن سوى مصدر رزق إضافي بالنسبة لها، كان أباً لأطفالها لفترة من الزمن. لحقته بعد دقائق إلى غرفته وسألته: «هل تريد مني أن أطلب من أخيك الحضور.. كي تشاركهم الجنازة.» هز برأسه موافقاً.

27

تعض بأسنانها البيضاء شفتيها بلا توقف، تجلس ثم تقوم لتتجول في الغرفة، تتشابك الأفكار في ذهنها بشكل محيّر، وأخيراً بعد أن تجولت في الغرفة عدة مرات تقلب أفكارها وأفعالها، ألقت نفسها على ذلك الكرسي متعبةً، إلا أن التوتر ما يزال يلفها كما لو أنه ثوب تلبسه، تناولت فاتن الهاتف وفكرت مجدداً: «هل أتصل بسالم؟» كانت قلقة بشأنه، فقد ثار غاضباً قبل خروجه، وتركها تشعر بالذنب والحيرة في الوقت نفسه. لم ترغب في القيام بشيء قد يغضبه،

وكذلك لم تفهم سبب غضبه.

تناولت الهاتف المتحرك، مترددة، وفي اللحظة التي نحت التردد جانبا وكانت على وشك الاتصال بسالم، إذا بالهاتف يرن. أجابت فاتن: «آلو..» تعرفت على صوت ابن خالها، بما فيه من شوق وحيوية حينما قال: «فاتن! ما هي أحوالك؟» صمتت للحظة وفكرت بإغلاق الخط إلا أنها تراجعت قائلة: «سامر... مرحباً بك، أحوالي على ما يرام... كيف هي الأجواء في سوريا؟» ضحك سامر وقال: «لا... لست في سوريا، أنا هنا أمام البناية حيث شقتك، إنها مفاجأة رائعة، ألا تظنين؟» لو رأى سامر وجه فاتن لما دعا مفاجأته هذه بالرائعة. ارتبكت فاتن؛ فهي تعرف أن سامر فضولي، ينظر في كل الزوايا، ويرى ما بداخل جميع الأدراج. كانت الخزانات تحوي على ملابس سالم، وهناك فرشاة أسنان أخرى إلى جانب فرشاتها، هناك حذاء رجالي في مكان ما في غرفة النوم، شفرة الحلاقة على أحد الرفوف في الحمام. قالت: «نعم... إنها

مفاجأة رائعة.» صمتت قليلاً ثم قالت: «سامر.. أرجوك لا تعد لإصرارك على مسألة الزواج، إذا كان هذا ما جئت لأجله.. فأنا...» لم يكن سامر الرجل الذي تراه فاتن مناسباً لها، لقد كان متطلباً يسعى لأن يعتني به الآخرون، وهذا ما كرهته فيه. بدا جدياً حينما قال بتهكم: «لا...أبداً يا فاتن، لقد تعديت مرحلة الإعجاب تلك.. لست هنا كي أحاول إقناعك بالزواج بتاتاً....» فجأة شعرت بالحرج ثم بالاشتياق والإعجاب.
أكمل سامر: «جئت لإنهاء بعض الأعمال وفكرت أن أمر عليك، فأنا ابن خالك، ويحق لي السؤال عنك.. « قالت بهدوء: «نعم.. بالطبع.» عاد قلقها من أن الشقة تدل على أن رجلاً يعيش فيها، ولقد أبدت له للتو موافقتها على قدومه. قال سامر: «إني قادم إليك، كما أني قد أحضرت غداءً لذيذاً جداً.» تزايدت ضربات قلبها حينما علمت أنه يصعد الدرج. كان عليها أن تقول شيئاً: «سامر، لست جائعة!» وتمنت لو أنها أتت بكذبة أخرى، وأدركت لو أنها أخبرته أنها في العمل أو في أي مكان آخر، لذهب هناك دون تأخير. قال، قبل أن يغلق الهاتف المتحرك: «ليست بمشكلة، سأتناول الغداء وحدي، أنا أمام الباب.. بانتظارك.»
أثناء المكالمة كان نفس فاتن يتقطع كأنها تجري، مشتتة، تحاول لملمة آثار حياتها الأخرى، التي تنتظر تحديد مصيرها مكالمة هاتفية تجريها مع سالم أو العكس. بعد مرور عدة أشهر على زواجهما لم تعد تعرف لم تستمر في علاقة لا تفيدها بشيء، وتدرك في أعماقها أن هذه العلاقة إن انتهت لن تخلف سوى الأذى، ما كانت تعلمه أنها تحبه، لكن ذلك أمر لم تعد متأكدة منه الآن، وربما كان غير كافٍ لإنجاح علاقة أُقيمت على أساس خاطئ؛ علاقة بدأت كخيانة لابد أن تكون نهايتها سيئة.
لا تزال فاتن ترتدي لباس النوم المثير للشفقة الذي اعتادت ارتداءه بعد فتور علاقتها بسالم. فتحت باب الشقة، كان سامر يقف منتظرا على وشك التهام فخذ الدجاجة المشوية وقد بدا في عينيها مختلفاً تماماً.

28

رن هاتفه المتحرك.. رنة.. رنتين، لم يسمعه. كان «مبارك» على وشك الانتهاء من الاستحمام، خرج من الحمام وقد لف خاصرته بمنشفة بيضاء اللون، بعد قليل رن الهاتف مرة أخرى، حينما أدرك أنها الرنة الخاصة بخطيبته «طفلة»، أسرع إلى غرفة النوم. تناول الهاتف وقال دون انتظار: «خلتك ستحرمينني سماع صوتك اليوم أيضاً.» سمع صوت فتاة أخرى تقول: «مبارك؟ هذا أنت... من الجيد أني وجدتك!» صمت مبارك متسائلا كيف وصل هاتف خطيبته إليها: «ريم؟ أرجوك.. توقفي عن الاتصال بي.. ثم ما الذي أتى بهاتف «طفلة» عندك؟
هل من خطب ما؟»

«ريم» الصديقة الأقرب إلى «طفلة». حصلت على رقم مبارك، وراحت تتصل عليه بلا توقف، في الاتصال الأول لم تجهر له بهويتها، وفي الثاني قالت إنها صديقة «طفلة» وإنها لا تقدر على تجاهل مشاعرها تجاهه، وسواء أخفتها أم أعلنتها فستظل تحتفظ بها في قلبها، تريده أن يعرف أنها تكن له حبا كبيرا. قال «مبارك» قبل أن يغلق الهاتف في وجهها: إنه مرتبط وصادق مع خطيبته ولا يمكن أن يُقدم على خيانتها مهما حدث. منذ ذلك الوقت أصبحت ريم أكثر تعلقاً به، بعد أن اتضح لها أنه مخلص لخطيبته. لم تتوقف عن الاتصال، ولم يتوقف عن تجاهلها، وإغلاق الهاتف أثناء اتصالها، أراد منها في بداية الأمر أن تتوقف عن إزعاجه والاتصال المتكرر به، وقال إنه لن يخبر «طفلة» إن توقفت عن ذلك، إلا أنها لم تتوقف، وأدرك مبارك مدى خبثها، فهي تعلم أن خطيبته

لا تحبه بقدر كاف، وهذا ما أشعل رغبتها في أن تُقدم على التواصل معه، وإغرائه بأنه يستحق أن يحبه شخص آخر، كانت خبيثة أن تستغل ذلك الجانب الفارغ في حياته، أن تشعره بالنقص، لتستميله.

«مبارك...دعك من كل شيء، أريدك أن تأتي إلى المشفى.. إن... « أحس مبارك بأن مكروهاً أصاب خطيبته. قاطعها قائلاً: «ما الذي حدث لطفلة؟ ريم...تحدثي؟» أجابت بتباطؤ: «كُسرت رجلها اليمنى..» سأل مبارك والخوف يتسلل عبر السلك ليصل إلى ريم ليشعرها بخطورة الوضع: «كُسرت رجلها! كيف حدث هذا؟» ترددت ثم قالت: «سقطت من الدرج...كاد ذلك يقتلها، حمداً لله أنها خرجت من الأمر بكسر واحد.» سأل مبارك والكلمات تتناثر من فمه كالهواء: «طفلة! سآتي، أعلميـ أخبريني أيـ..ن...»

ارتدى ملابسه بسرعة، ركب سيارته وانطلق مسرعاً نحو المشفى. لم يكن من السهل عليه أن يتقبل الأمر، صحيح أنه كسر.. لا خسارة روحها، ولكن أن يتصور فكرة خسارته لمن يحب، لشيء يرهقه لمجرد تصوره. أخذت دموعه تتناثر خوفاً عليها، حزيناً لأنه أهمل التحدث إليها في اليومين السابقين، وها هو عالق الآن في زحمة السير، التي تمنعه من الوصول إليها بالسرعة التي يرغب فيها. أدرك مبارك للتو ودموعه تختلط بعرقه، أن خطيبته هي ما تجعله يحتمل ضغوطات الأيام وما يجعله يرغب في عيش الحياة.

29

تلاشى من فكر «سيف» كل ما يشغله، حينما اتصلت زوجته، وأخبرته بأن أخاه «زايد» يريد منه القدوم، لأخذه لحضور تجهيزات دفن ابنه. مرّت سنين طويلة منذ تحدث مع أخيه، واليوم يستطيع ذلك، فقد خرج أخيراً من قوقعته؛ غرفته الصغيرة؛ صندوق الكآبة. كم كان صعبا على «سيف» رؤية أخيه على تلك الحال لسنين، دون قدرة على تغيير ذلك الوضع المميت للروح، وبينما كان عالقاً في زحمة السير أخذ ينظر هنا وهناك، وقعت عيناه على رجل في السيارة المجاورة يبكي كالمجنون، ازداد حزنه، وشعر بالشفقة على نفسه، فهو لا يمتلك الشجاعة ليبكي، كما يبكي ذلك الرجل الشجاع، خيل إليه أنه يعرف ذلك الرجل، فهو يبدو مألوفاً، استطاع الخروج من الزحمة لكن الرجل الآخر لم يخرج منها، وبقي حبيس الحزن.

ما إن وصل إلى المنزل، ولمست قدماه الأرض، حتى أسرع تجاه أخيه، فإن لم يقتل ذلك الحادث زايدا فإن معانقة أخيه له كفيلة بإزهاق روحه، لأنه ضمه إلى صدره وعانقه بقوة شديدة، كانا بحاجة إلى هذا العناق، إنهما أخوان لم يتفقا كثيرا، يرى كل منهما الحياة بنظرة مختلفة، ونظرتهما للحياة تحدد الطريقة التي تسير بها حياة كل منهما، إلا أن القدر أحيانا يحدد الطريق التي تسري به الحياة، وما يعيشه كل منهما الآن، خليط من الاثنين. الحزن يجمعهما وينثر سرور التواصل بينهما. أن يجهل المرء مشاعره...أمر، وأن يجهل ما عليه أن يشعر.. أمر آخر، والأخوان الآن يغطان في جهل لما عليهما الشعور به، في هذه اللحظات

الغريبة، فقد بدا أن زايدا عاد من سفر دام لسنين، ولقد كان الأمر كذلك بالفعل، فها هو يخرج من زنزانته.

في زحمة السير ما يزال «مبارك» محبوساً، وقد امتلك شجاعة أن يكون صادقا مع مشاعره ويترك نفسه للبكاء، فمن الحكمة أن ينحنى المرء أمام الظروف السيئة كجذع شجرة يابس. رنة خطيبته يرددها الهاتف المتحرك، كان يعلم أن «ريم» من يتصل به وليس «طفلة». «هل أنت بخير مبارك؟» أجاب: «سأكون بخير إن لم أسمع صوتك مجدداً.» بحزن مزيف: «مبارك، كيف تقول هذا؟» بغضب شديد: « أنت كيف لك أن تفعلي هذا؟» تدعي ريم البراءة وتقول: «ما الذي فعلته؟»

بتهكم: «لا.. لا لم تفعلي شيئاً!» ثم استطرد قائلاً: «تتظاهرين بأنك صديقتها أم ماذا.. ألا يتعبك هذا؟ هلاّ أخبرتني كيف تتحملين نفسك وأنت تخونين صديقتك؟» صمتت ريم لبرهة ثم قالت: «لست أخونها... لا تضع الأمر في هذه الكلمة القذرة، أنا أعبر لك عما يدور في قلبي، هل أجرمت بفعل ذلك؟». قال مبارك: «كان يجدر بك أن تتجاهلي هذه المشاعر التي أشك في مصداقيتها على أية حال، إن كنت تكترثين بعلاقتك بطفلة.» قالت ريم بانفعال: «أنا أكترث فعلاً بعلاقتي معها... ولكن لا أدري...أرجوك مبارك! لا تقل لها شيئاً...لا تفضح أمري.»

تعجب من أمرها، فصديقتها تعرضت لكسر في رجلها، وكل ما تهتم له هو ألا يفضحها، وألا يعلن الحقيقة لخطيبته! قال مبارك بينما يخرج من زحمة السير: «ماذا؟ هل...هل هذا ما يعنيك أكثر من أي شيء آخر؟ لست أفهم أنانيتك.» قال مبارك وهو يختم المكالمة: «ربما تكون طفلة صديقتك في إحدى مراحل حياتك، لكن صدقيني لن تكون بعد ذلك، حالما أدخل المشفى... لا أريد رؤية وجهك، وإياك الاقتراب من طفلة مجدداً، إنك لا تستحقين صداقتها مطلقاً».

أغلق الهاتف المتحرك.

30

تشعر لبرهة أنها تعرف نفسها جيداً، وبرهة أخرى أنها لم تعرفها يوماً، ضياع مستقر تلك هي حالتها، تنخرط نفسها مع الحزن تارةً وتنخرط نفسها مع نفسها تارةً أخرى. تفكر بوضعها لدقائق ثم تبدأ بتأنيب نفسها على أنانيتها، لأنها فكرت بنفسها. في وضع مأساوي تعاني منه أسرتها وتعاني منه نفسها، تبدأ بالحزن لا على الوضع المأساوي ذلك، بل أيضاً على نفسها، ثم تلوم نفسها مجدداً على التفكير في نفسها، وتستمر في الشعور بتلك الأحاسيس واحدا تلو الآخر، بترابطها المميت. لم تقو شما على لملمة أغراضها التي تحتاجها، فالحياة من جسدها تلاشت، اندلقت على الأرض كما دموعها، وبالفعل دموعها أصبحت الحياة التي تخرج من جسدها أمام ناظريها. كانت شما تموت ببطء رقيق.

تولت الخادمة جمع الأغراض ووضعتها في مؤخرة السيارة، جلست شما في الكرسي الخلفي، وفي الطريق أمكنها رؤية وجه «سالم» من أحد جانبيه، رأت أنفه الطويل يشير إلى عدم الاكتراث، وقد اتضح ذلك عندما قام بتشغيل أغنية، ثم أوقفها، بعد أن أدرك أن ذلك لا يتناسب مع المأساة التي حلت بالعائلة. أخذت شما تنظر إليه، لم تر أي مساندة أو تعاطف، كأن لا علاقة له بما حدث، فخالته التي تربى على يديها وتُعد أمه الثانية ترقد في المشفى، وابن خالته الذي كان دائماً أخاً صغيراً له مصيره الرقاد المؤبد تحت الرمال، وكل ذلك لا يؤثر فيه، وتساءلت أخيراً عن هوية الرجل الذي تزوجت؟ والذي غفلت عن السؤال عنه في صخب الزفاف.

تنزل شما زجاج نافذة السيارة المسرعة، وتترك الهواء يضربها بقوة، يعاقبها، يؤنبها، يرمي بدموعها هنا وهناك غير مكترث لها، يؤدي لها أكبر خدمة، وبينما تنظر إلى السماء الزرقاء نظرة غير زرقاء، بل سوداء كما تتوقع لمستقبلها، شعرت بنفسها تصل لنقطة فهم عميقة؛ إدراك لكل ما حولها من أمور تجري على سطور من التناغم المؤلم. فهمت شما الصورة؛ لوحة ضياعها، بعينيها المغلقتين: «تركت الدراسة، تزوجت بهذا الحقير الذي أحبته. ما الذي أحتاج أكثر يا ترى، لتزداد حياتي سوءاً؟ الطلاق ربما». قطع سالم عليها تفكيرها قائلاً: «شما، أغلقي النافذة سنصاب بالبرد.» لم تعره أي اهتمام، فأعاد طلبه هذه المرة بنبرة حادة، جعلت شما تصرخ في وجهه قائلة وهي تبكي بصمت: «لن أغلقها!». كأنه تحد بين طفلين صغيرين قال سالم: «لن تغلقيها؟ حسناً سأغلقها.» ابتسم تلك الابتسامة التي لا تُصدق، لما تحمل من سُخف، وهو يغلق النافذة من أزرار التحكم. «ألا تملك أيّ مراعاة لوضعي... أيّ إحساس!» بسخرية قال سالم: «هلاّ صمت.» وبنبرة تحذير خاطبته شما: «إياك أن تحاول إسكاتي...صمتّ مطولاً ولن أصمت بتاتاً، شئت أم أبيت.» لم تجبر نفسها على السكوت بل استطردت: «أنت من رغب في الزواج، ولم ترفض حينها...وتعلم جيداً أنك ظلمتني، عندما قاطعتني منذ تزوجنا حتى اليوم، هل تعتقد أنه من السهل على أيّ إنسان ألا يتكلم لمدة شهور مع شخص آخر سوى نفسه...».

أخذت شما تبكي وهي تستمر في كلامها: « كيف تفعل شيئاً كهذا! أن تهجرني وأنت لا تعرفني حتى؟ رميتني هناك في المنزل... جاهلة لكل ما يدور من حولي.» شغل سالم أحد الشرائط الموسيقية ورفع الصوت لآخر درجة. أردفت شما قائلة والصدق من خلال كلامها ينبعث بسلاسة: «ألا تعلم أني لم أملك أدنى فكرة عن إجبار والدك على الزواج بي؟ هل ظننت أني كنت سأوافق لو علمت بذلك... نعم كنت صامتة طوال الوقت، ولكنني أملك كرامة.» قال سالم ولسانه يجد صعوبة في إخراج الكلمات لتصل

لمسامع شما: «من الصعب جداً عليّ... أن أعترف بهذا، يبدو كلامك صحيحًا... ليس خطئي أنك لم تعلمي، فأنت لم تكترثي بأي شيء آخر سوى الزفاف! لم تسألي بتاتاً عن أيّ شيء آخر؟».

لم يفكر سالم أن فتاة في الخامسة عشرة، ربما تجذبها تجهيزات الزفاف، أكثر من طرح الأسئلة. أكمل بغضب، محطما كل شيء بينهما: «لم أُرد الزواج... هل تفهمين؟ وإن أردت ذلك، والخيار كان بيدي، لما كنت أنت زوجتي.» صمت قليلا ثم أكمل: «تعرفين جيداً أنني كنت معجباً بأختك سلمى... وما زالت كذلك، ألم تعلمي ذلك؟ أم تناسيت، كيف طاوعك قلبك على فعل ذلك؟ كان من الممكن أن تكون هي زوجتي، لا أنت! وربما كانت الحياة ستكون أرحم معها، ولكن لا، عرضت نفسك بسخاء...عمي أنا أقبل الزواج بابنك! لقد حطمت ما كان من الممكن أن يحدث... وهو إجبار سلمى على الزواج بي، وترك تعلقها السخيف بالدراسة، لماذا لم تصمتي حينها؟ لست أعرف كيف تقوين على التحدث معي بعد فعلتك تلك! أنا مجبر عليك، حاولي فهم ذلك؟».

ضرب ذلك الكلام قلب شما بقوة، جعلتها تنزف الدموع نزفاً. قوة أخرى مجهولة وغامضة، جعلت مشاعرها تتشبث به أكثر. كانت تتعجب بغضب من نفسها، يذلها ويتجاهلها، ثم يرمي بالذنب عليها، فتتعلق به أكثر! أن يحب المرء من يسيء له لأمر يُظهر كره الشخص لنفسه، وحبه تعذيبها. ألقت بظهرها على الكرسي ونظرت إلى السماء التي أصبحت تأخذ لونها الطبيعي، شيئاً فشيئاً، في عينيها. صحيح أن ذلك الكلام أهانها، وربما أذلها، لكنه أوضح لها الأمور.

31

يرتدي نعلين أسودين كأنهما خرجا للتو من علبتهما، سروالاً جلدياً بني اللون يبرز قدّه الرشيق، حزاماً أنيقاً يحيط بخاصرته الدقيقة، قميصا أبيض اللون يبدو أنه نسي، أو تناسى، إدخال الزر الأول في عروته. وجهه مشرق، يرتدي نظارة من ماركة بوليس، وشعره ممشط بطريقة عشوائية إنما لطيفة. تفوح منه رائحة عطر رجالي قوية. يلتهم فخذ الدجاجة والدهن يغطي شفته السفلى. أبعد الفخذ المشوي عن فمه، ووضع حقيبته التي بدت كحقيبة رجل أعمال على الأرض، وهو يقول: «ما الذي حدث لك!» ثم اقترب منها بخفة وقبلها على خدها، وهي ما تزال متسمرةً مكانها، مأخوذة بالمشهد الذي تراه أمامها. يا له من تحول. لم يبد «سامر» الذي يقف أمامها بقامته النحيلة الجذابة، كسامر ابن خالها الذي عرفته منذ كانت طفلة. تمالكت «فاتن» نفسها وتساءلت: «ما الذي حدث؟»

اعتلت شفتيه بسمة ناعمة، بينما كان يجيبها: «يبدو كأن شاحنة مرت من فوقك.» ضحكت ضحكةً متوترة، ثم فتحت فمها، على وشك التحدث لكنها صمتت. شق طريقة نحو الصالة، قائلاً: «لقد اشتقت إلى هذا المكان.» حملت فاتن حقيبته التي تركها على الأرض بجانب الباب، والتفتت نحوه، على وشك سؤاله حول ما إن كان مشتاقاً لها، فتداعى إلى ذاكرتها أنه لم يعد ذلك الشاب الهيمان بحبها، ورأت أنها إن سألت سؤالاً كهذا ستحرج نفسها، وقد بدا أنه قد فسخ حبه لها عن قلبه كفسخ مُرهق لملابسه.

«هل يمكنني الجلوس؟» سـأل سـامر بـأدب... فأومأت برأسـها موافقة، ثم قالت وهي تغلق الباب: «بالتأكيد يمكنك أن تجلس.» لم يسـألها قبل ذلـك مطلقاً ما إن كان من الممكـن أن يجلس أم لا. أدركت فاتن في تلك اللحظة أن «سـامر» لم يعد «سـامر»، وربما هذا هو السـبب الذي جعلها تنجـذب إليه فجأةً، فلم تحب سـامر الآخر يوما؛ بقلـة ذوقه واندفاعيته المزعجة وحيويته الزائدة. كان رجلاً آخر لا تمانع الارتباط به، وتخشى ذلك في الوقت نفسه.

وضـعت فاتن حقيبته جانباً بعد أن سـألته: «ما الذي يحدث لك أنت؟» نظـر إليهـا نظرة اسـتنكار: «ما الـذي يحـدث لي أنا؟!» تداركت نفسـها وسألته وهي تمسك بكيس الغداء: «هل أسخن لك الغداء؟».

في المطبخ حيث وقفت تسخن غداءه، دخل بخطوات خفيفة. كان وجوده رائعا بدرجة لا تحتمل. سألته: «تبدو مختلفاً يا سامر؟

هل خضـعت لعملية تجميل أو ما شـابه.» ضـحك ضحكة مفتعلة وقال: «ربما... فالتجارة التي دخلت بها تدر مالاً يسـمح لي بالقيام بما يفوق تكاليف عمليات التجميل.» فاجأتها إجابته،

فمنذ متى يفهم سـامر في التجارة؟ شـعرت بنفسها مرتاحة في التحدث معه، هي التي لم تشعر بذلك يوما: «لاحظت التطور الذي مررت به يا ابن خالي، فيبدو لي أن الحقيبة تكلف الكثير!»

كان سـامر قـد غير طريقـة حياته، اسـتعان بصـديق يعمل كمستشـار اقتصـادي، ليكون مرشده في بيع وشراء الأسـهم، ونجحت أعماله، وها هـو الآن يملك مالاً يمكنه من القيام بالكثير. لم ترفع فاتن عينيها عنه، تحاول معرفة هويته الجديدة، سمعته يقول بتلقائية: «أنا خائف عليك.» لا بصيغة سؤال بل بنبرة إرهاق،. قالت:

«خائف عليّ؟» تقدم نحوها:

«نعم... فأنت هنا وحدك، لا أحد يقوم على رعايتك». لو طرح سامر القديم هذا الرأي لانهالت عليه بحديث طويل عن الاسـتقلال الشخصي ورعاية

المرء لنفســه، لكن ســامر الغـامض هو من يتحدث. وافقتـه قـائلـة: «نعم.»
أثنــاء تنــاول الغداء حـاول إقنـاعهـا أن تشــاركه في أعمـالــه. كـانت تنظر
إليــه، وفكرة خطرة تدور في رأســهـا. كـم أرادت التـهـامـه في تلك اللحظة؛
إنــه ســامر، ابــن خـالهـا، الــذي كـانــت تنزعج مــن اتصــالاته وزياراته،
وحديثه الممل، والأهـم رائحته الكريهة، فجأة أصــبح من الصــعب عليهـا
النظر إليه، الاقتراب منه،
أو حتــى التحــدث إليه. لا يمكن لهــا أن تتجـاهل مـا يداعــب قلبهـا، وهـي
مدركة تأثيره الحـاد عليهـا. مر الوقت بسرعة،
وانصرف سامر بعد أن ترك انطبـاعـاً جديداً، وأفكـارا جديدة، وأحسـاسيس
أخرى.

32

يـترك دموعــه ترتمي على خديه، تتشـبث بشـعيرات لحيتــه، دليلاً على أهميتها في حياته. في تلك اللحظة التي كان يركض فيها إلى غرفة طفلة، أدرك أنــه لا يجب أن يمنعنا أي شــيء، من أن نكون قريبين ممن يســتند إليهـم وجودنــا، وتميل لهم قلوبنا، ومن دونهم نفقـد الرغبة في الحياة. لم يجـد ريم هنـاك. ذلك أفضـل شــيء فعلته، بخروجها من المستشـفى، خرجت من حياة خطيبته، وخرج رقمها من هـاتفه. تضجع «طفلة» على السرير شـبه جالسة، ترتدي عباءتها وحجابها (شـيلتها) على كتفيها، وقد لفت شعرهـا الأحمر الجميل إلى الوراء، وبدت شاحبة وجميلة، حينما دخـل «مبارك»، مندفعا وأخذ يقبل يدهـا، وصـلت أناملها بقـايا دموعه: «مبــارك! أنــا بـخير.. اترك يدي أخشــى أن يدخل أحدهــم ويطردك.» رفع رأسه وهو متشبث بيدهـا رافضاً تركها: «طفلة، حبيبتي... إن...» قاطعته سائلة بعد أن شاهدت الدموع على وجنتيه البارزتين: «هل كنت تبكي؟» أخذت الدموع تتساقط من عينيه مجدداً وهو يقول: «خشيت فقدانك...لقد أهملتك في الأيام الماضية وهذا لن يحدث مجدداً... أعدك.»

تشــابك حاجباها اللطيفان وهي تقول: «لا ...لا مبارك لم تهملني بتاتاً، كل مــا حدث هو أنك انشـغلت لا أكـثر، وأنا كنت منشـغلة كذلك... كفاك بكاءً.» نجحت طفلة في مده بشعور مطمئن، إلا أن ذلك لم يمح رغبته في البقاء على اتصال دائم معها. نـاولته المحـارم ودعته للجلوس: «هل أنت فعلاً بخير؟» ســألها مبارك قلقاً. أجابت: «نعم أنا كذلك صـدقني.» مرر يده على رأســه وقـال: «لم أســأل الطبيب عن حـالتك، لقد جئت محلقاً إلى

هنا.. سأسأله لاحقاً... على أية حال، أخبريني عن يومك في الجامعة؟»
أخذا يتحدثان مطولاً، حتى وضعت «طفلة» نفسها في موقف حرج حين قالت: «ألهذه الدرجة تحبني؟» لم يتردد مبارك بالإجابة: «أحبك أكثر مما تتصورين.» صمتت حزينة، فعاد إليه قلق البداية عندما أخبرته بأنها لا تكنّ له نفس الحب، لكنه الآن لم يعد يشعر بالاستياء كما في الماضي، تذكر حديثها ذات مرة عن أنها تشعر بالسوء تجاه نفسها، حينما تراه يحبها بشدة وهي خاوية المشاعر تجاهه، نظر إليها وعلم ما يدور في فكرها، فقال: «طفلة، ستحبينني... أنا متأكد من هذا.» لكنها ما تزال متجهمة الوجه فأردف: «من يقوى على عدم حبي... انظري إلي!»
أضحكها ووافقته الرأي، ثم قالت: «هل تعرف؟ يسرني أننا نتحدث...
ونتصارح حول كل شيء، خاصة مشاعرنا.» أومأ مبارك: «نعم، هذا أكثر ما أحب في علاقتنا.. الصراحة، كان من الممكن أن تقولي إنك تحبينني... أن تكذبي عليّ...
ونستمر هكذا، لكن ذلك لم.. ولن يحدث لأني ما أنا عليه، وما أنت عليه من شفافية، تحول دون الوصول لمرحلة فيها نلفق أحاسيسنا، فقط كي نستمر..» استمر قائلاً: «لذلك أريد التحدث معك في أمر معين.» ابتسمت قائلة: «ريم؟ ارتفع حاجباه متعجباً، ثم قال: «ماذا!» نظرت إليه: «ريم! أليست هي من تريد التحدث عنه؟» قال: «كيف علمت؟» ضحكت: «جميع صديقاتي معجبات بك، أمر طبيعي تماماً، ولكن ريم فعلت ما لم أعتقد أنها قد تفعله يوماً... أنهت صداقتنا، يحزنني ذلك... ولكن لا يمكنني إعادة التواصل معها... ربما يحدث هذا.. لكن ليس الآن، وهذا كله يأخذني إلى استنتاج واضح!» نظر إليها مطمئن البال، بعد أن رفعت عن كاهله حمل إخبارها بخيانة صديقتها. قالت متهكمة: «الاستنتاج هو أن أدّعي أن لا خطيب لي، أو لا أتخذ أيّ صديقة.» ضحك وأخبرها أن لا أحد... ولا شيء قادر على التفرقة بينهما، طالما يقدران على التحدث لساعات، دون ملل يتسرب بين الحروف.
ينظر كل منهما إلى الآخر.

33

لا يقوى سالم على تصديق ما يحدث، إنه محبوس في السيارة لوقت طويل، يتشارك الهواء نفسه مع شما؛ مع الفتاة التي يكره. لم يرغب يوماً أن تكون زوجته، إنها قرار والده؛ قرار نغص عليه حياته، ويبدو أن عليه ملازمته حتى يرقد تحت التراب، رأسه مزدحم بالأفكار، يفكر في زواجه العرفي بفاتن الذي لم يكن سوى ردًا خفيًا على إجبار والده الزواج بشما. كان غاضباً، مستعداً لفعل أي شيء لرد اعتباره. قال في نفسه: «خطوة كبيرة، غبية». أدرك أن والده –الذي يكترث بشأنه أكثر من أي شخص آخر– لن يكون سعيداً إن علم بزواجه العرفي. كان والده بالنسبة له كعبق الحياة؛ وخاف أن يكون بتصرفاته قد خذله، وأدرك أنه لن يتردد بفعل أيّ شيء لجعله راضياً عنه، ولو كان ذلك تحطيم زواجه بفاتن. تتوالى أفكاره، وفي مرحلة من مراحل تفكيره، لم يلم سالم والده على إجباره الزواج بشما، فقد تراءى له أنه سيفعل الشيء ذاته إن كان أباً. عاد ليفكر بأن الحل لم يكن بتزويجه، ربما بأي وسيلة أخرى، سوى حل مشكلة بأخرى. كان سالم يجهل السبب الذي يكمن خلف كرهه لشما، ربما يكون عرضها لنفسها للزواج به، تحطيمها للعلاقة التي كان من الممكن أن تنشأ بينه وبين سلمى، ربما ذلك ليس السبب، وربما لا وجود لأية أسباب بالأصل. أدرك سالم بطريقة أكثر حدة –بعد أن عبّرت شما عن نفسها– أنه غير قادر على احتمالها، ولا يعرف ما الذي سيفعله في المستقبل، إن بقيت قريبة منه.

رن هاتفه المتحرك بلا توقف، مرة.. مرتين.. ثلاث.. عشر مرات، وبالرغم

من إغلاقه المتكرر لـه، لم يتوقف ذلك الشخص عن الاتصال. أخيرا أمسك الهاتف: «آلو؟» أجاب سالم. سمع صوت فاتن غاضبا: «سالم؟ إنك رجل قـذر، كيف لك أن تتجرأ على تجاهلي؟ ثم لماذا أخذت تصرخ في وجهي قبل رحيلك دون أن تفهم ما حدث؟» كانت تواصل كلامها غاضبة: «إنك تفتعل المشاكل، لست أعرف لماذا؟ ولكن يسرني أن هـذا يحدث كي لا أضطر لسماع صوتك مجدداً طوال هذا الأسبوع.»

أغلق الهاتف في وجه فاتن، بعد أن تحدث إليها بضمير المذكر، دون أن يكترث بما سيدور في مخيلة شما. شعر بزوال حبه تجاه فاتن. فكر أن حياته كانت وما تزال معقدة كفاية، وليس بحاجة أن تزيد فاتن تعقيدها.

34

الخلـود لم يكـن مصـير أيّ إنسـان ولـن يكـون، نرتـاح ونتعب، نضـحك ونبكـي، نفـرح ونتألم، ثـم تُرمى أجسـادنـا تحت الرمـال، تتجعد أوراق تـاريخنـا القصـير، ويقل ذكـر الآخرين لنـا بـالخير أو بـالسـوء، مـا ننتمي إليـه لم نفـارقـه يومـاً: التراب الذي هـو خلودنـا النـاقص الذي يشـبهنـا. روحه فـارقت جسـده، وجسـده فـارق الحيـاة، والحيـاة فقدتـه، وافتقـاده مؤلم، والألم الذي يسـببه بعده الأبدي، أصـبح أقل وطأة بـالنسبة لسلمى عند قدوم شمـا.

بعـث لقـاؤهمـا بعض الأمل، رغم أن سـلمى كانت منهـارة، لا شـيء في حيـاتهـا يجري كمـا يجب، أحـاسـيس متنـاقضـة تطبق قبضـتهـا الصـلبة علـى قلبهـا، تهرسـه في راحتهـا. لقـد بدت ميتـةً، فبـالإضـافة إلى كـارثة العـائلة، كـانت لا تزال تلقي اللوم على نفسـهـا لمـا حدث لشـمـا، فـالزواج، الذي تم في بداية الصـيف، كان انفصـالا بينهمـا، وجهلهـا لحقيقة الأمور جعـل مشـاعرهـا في حـالـة فوضـى. أمـا شـمـا فقد بـدت، رغـم إرهـاقهـا وحزنهـا، أحسـن حـالا، فحديثهـا مع سالم واعترافهـا بمـا في قلبهـا جعلهـا أكثر راحة مع نفسـهـا، وإن بقي بعض القلق الآتي من اضطراب علاقتهـا بسلمى، الذي يمكن أن ينهيه جلوسهمـا معـا يتحدثـان بلا جدران صـخرية ولا تلفيق لمشـاعرهمـا. أرادت شـمـا أن ترافق سلمى إلى المستشفى، لكن الإرهـاق البـادي عليهـا، جعل سعيد يرفض أن تذهب لرؤيـة والدتهـا وهـي بهذا الشكل.

طلبت سـلمي أن يوصـلهـا أحدهم إلى المستشـفى، لم يفسح سالم المجال

لأحد، واندفع فارضـاً خدماته، حاول سعيد رده عن رغبته بلا جدوى، كان الوضع مريكاً، أن يرافقها «سالم» زوج أختها، الذي تعلم أنه كان يوماً معجبا بها. ما سهل الأمر، بطريقة ما، هو تجاهل سلمى لتلك المشاعر، وجهلها بأن إعجابه بها ما زال موجوداً. كان من النعمة أنها لا تعرف ذلك، وإلا فإن الإرباك كان سيتحول إلى ذعر. لقد جعلها سالم، بإصراره على إيصالها لوالدتها، في وضع غير مريح. كان من الغريب أن يتخذ ذلك الأسلوب، لكنها لم تكترث لذلك، بقدر اكتراثها بالاطمئنان على والدتها.

«سأنزل معك.» لم يكن ذلك خيارا، بدا كأنه يفرضه فرضاً. لم تعجب سلمى تلك اللهجة: «لا داعي لذلك، يمكنك العودة، سأبقى مطولاً عند والدتي، كما أن أحد إخواني سيأتي لإعادتي للمنزل، شكراً على إيصالك لي سالم.» فتحت الباب وكانت على وشك النزول، فأمسك برسغها وقال مائلاً بجذعه: «لن أدعك تنزلين إلى المستشفى وحدك، هذا غير جائز يا سلمى، لا بد أن المكان يعج بالرجال في هذا الوقت.» استفزها كلامه وأشعرها بأنها على وشك أن تدخل ملهى للرقص: «سالم... اترك يدي.» ترك يدها وعاد بجذعه إلى الوراء، قائلاً: «لن تنزلي وحدك... ذلك لن يحدث.» قالت سلمى وهي لا تصدق أذنيها: «ما الذي تقوله؟» كان يمكن لسلمى أن توافق على مرافقته لها، في بداية الأمر، لكن الطريقة التي يتحدث بها، جعلتها تصر على رأيها. التفت إليها وقال ساخرا: «أقول لك بأني سأرافقك شئت أم أبيت.» نظرت إليه سلمى متأثرة وهي تقول: «هل تدرك أنك تهينني بكلامك هذا، اعذرني، إن نزلت فلن أنزل.» تنهد سالم وبدا مرتاحاً، كأنه واثق من أنه سينفذ ما يريد. كشفت سلمى حجابها (شيلتها) عن وجهها ونظرت إليه قائلة: «أنا أعرفك منذ كنا نحبو، وأعرف أنك تعرفني.. وأكره معرفتك لكرهي لهذه المواقف، حينما يرافقني أحدكم فقط لمرافقتي، لا لغاية أخرى، كأني صبي صغير تخافون عليه، صدقني لو لحقت بي بعد نزولي...» تخللت شفتيه ابتسامة خفية،

جعلتها تأمره قائلة: «انظر إلى وجهي، وسترى أنني جادة فيما أقول.»
كانت مرافقة أحد إخوانها أو أحد الأقارب لها، بمثابة تحطيم لتقديرها لذاتها، فهي ترى نفسها امرأة تعرف الطريق الذي تمشي فيه، وتسمو عن أي أفكار حقيرة قد يفكر فيها أحد. كم كان مؤذيا أن يجبرها والدها في الماضي على أن يرافقها ابن عمها الصغير، حينما تذهب إلى أحد الأسواق، دون اعتبار إلى شخصها. كان من الجارح بالنسبة لها أن تُجبر على شيء كهذا، أن يرافقها شخص يصغرها أعواماً، ولا يدرك شيئا. لم تستطع تقبل ذلك أبدا، وها هي الآن ترفض ما رفضته دائماً، خارجة من السيارة، آملة أن لا تراه يلحق بها، متجاوزاً إياها، ليكون أمامها، كأنه يعلن ضعفها.
نظرت سلمى وراءها فـ...

35

جلس على طـرف السرير، فصـدر ذلك الصـوت المعهود، الذي يصـدره البلاستيك المغطي للسرير الطبي. نظرت «طفلة» إليه بعينيها الناعستين، وارتسـمت على شـفتيها بسـمة عذبة. اقترب منها «مبارك» وقبل خدها الأيمن برقة الطيف. كانت ملامسـة شـفتيه الرطبتين لوجنتها المرتفعة بفعل ابتسـامتها، كملامسـة روحه لروحها. كانت بشرتها كبشرة طفل رضـيع؛ ناعمة لدرجة جعلت مبارك لا يرغب في تركها. ما يسـيطر على قلبـه ويتملكه، بـلا قرين، ويحكمه الحكـم المطلق، لشـعور قوي، يجعل المـرء راغباً في التعبير عنه بأية طريقـة، والطريقة الوحيدة التي كانت متاحـة لمبارك، هي بتقبيلهـا قبلة بريئة، فقد كتبـا كتابهما منذ وقت طويل، ولا يقوى على الانتظار حتى يستطيع أن يثبت لها أن حبه يفوق أي تصور.

كان يجلس صـامتا على طـرف السرير عندما فُتح البـاب فجأة، وظهر شـخص في مدخـل الغرفة، تطلـع بدهشـة إليهما. كانت فتـاة، اعتذرت بسرعة وأغلقت الباب وراءها. نظر مبارك إلى «طفلة»، وقال: «يبدو أنها أخطأت الغرفة». أومأت طفلة برأسها موافقة، وبقي مبارك يفكر في ذلك الطيف الذي دخل وخرج فجأة.

طلبت «طفلة» منه إحضار بعض الأغراض، وإخبار عائلتها عن مكانها، وأن يطمئنهم عليها، ويخبرهم أنها سـتعود للمنزل بعد يومين كأقصـى حد. تركها قائلا إنه سـيعود في أقرب فرصـة. عندما خـرج من الغرفة، رأى مـرة أخـرى، تلك الفتاة التي دخلت الغرفة منذ فترة، تقف مسـتندة

على الحائط وتبكي، تمثل القنوط بكل ما يحمل من آلام. كم تمنى مبارك لو أنه يقدر على امتصاص آلامها التي ظهرت على جسدها الضئيل. لكن كل ما كان يجب عليه فعله، هو تجاوزها والمضي في طريقه، وقد فعل ذلك، ورغبته في مواساتها تتساوى مع رغبته في أنه لم يرها.

36

اندهشت سلمي، عندما التفتت ولم تر سالم وراءها، وهو الذي يتمسك بأقواله كتمسك الحشرات بالضوء. أكملت طريقها إلى المستشفى، عندما رن هاتفها، سمعت صوت سعيد يقول: «سلمى أخبري والدتي كل شيء.» أجابته متفاجئة: «ماذا؟ سعيد لقد أتيت لأونس وحدتها، لا لأخبرها أيّ شيء، لا أظن أني قادرة على فعل ذلك.» لكنه حاول إقناعها، هارباً من المسؤولية التي تقع على عاتقه: «سلمى، لابد أنها ستطرح التساؤلات ولا يجب علينا إخفاء الأمر عنها.» قالت: «ما رأيك أن تقول لها الخبر بنفسك؟!» قال بحزن: «لا تفعلي هذا بي يا سلمى.» ردت عليه: «بل أنت لا تفعل هذا بي يا سعيد..».

في نهاية الأمر أقنعها أن تخبر والدتها. أخذت تخطو، بخطوات تتعمد إبطاءها، نحو غرفة والدتها، خائفة مما يجب عليها فعله. فتحت الباب، وما إن وضعت قدمها على أرضية الغرفة، لم تر والدتها، بل رأت شابا يجلس على طرف السرير بجوار فتاة وضعت رجلها في الجبس، اعتذرت وخرجت بسرعة، وأدركت أنها دخلت الغرفة المجاورة. شعرت بالأرض تتحرك تحت قدميها، ورغبت في الجلوس بأسرع وقت، فاستلقت بجوار والدتها بعد أن قبلت رأسها.

كانت والدتها شبه نائمة، وقد أفقدتها قلة الكلام، القدرة على الحديث بسرعة: «سلمى...ابنتي؟» أجابت سلمى: «نعم ابنتك سلمى، لا تتكلمي يا أمي، ارتاحي الآن.» كم أرادتِ سلمى، لو أن أمها تصغي إليها ولا تتكلم، لتعفيها من مسؤولية كبيرة، أُجبرت عليها. انتقلت لتجلس على الكرسي،

وأخذت تتحدث متجنبة ذكر أيّ أمر قد يرغمها على الكذب، أو القيام بما أوكلها به سعيد: «لا تبدين بخير يا أمي، فقد تعرضت لكسور عديدة... هل تتألمين؟» أجابت والدتها: «نعم كسوري كثيرة والألم شديد، ولكن لا بأس.» فكرت سلمى أن الألم الذي سيجتاح قلبها إن عرفت بما حدث لابنها، أكبر من أي ألم قد تشعر به طوال حياتها.

«هل عرفتم من الذي صدمني؟» يا له من سؤال.. ويا له من صمت لاذت به سلمى. «سلمى، أجيبيني؟» استيقظت سلمى من صدمة السؤال ومن خوفها، فوجدت نفسها تجيب دون أن تفكر: «لا.. لا.. لا نعرف هوية الرجل.» كادت دموعها تتساقط إلا أنها تمالكت نفسها. «لا تخافي علي يا سلمى، سيعينني الله، أخبريني ما هي أحوالكم في المنزل؟» شعرت والدة سلمى أن ابنتها حزينة، ولمست رغبة في البكاء في صوتها. «جميعنا بخير، كل ما يهمنا هو أنت يا أمي...إن كنت بخير فجميعنا بخير...جميعنا بخير.» أرادت سلمى من والدتها، أن تتوقف عن طرح الأسئلة، إلا أنها لم تفعل. «كيف هو حال صغيري محمد؟» لم تكن الإجابة على السؤال اختياراً، وقفت سلمى ومشت خطوتين.. مبتعدة وهي تحاول إيجاد طريقة، تخبر بها والدتها عما جرى قائلة: «أمي.. محمد...».

دخل عمها «سيف» الغرفة، بخطى واثقة. نظر إلى وجه سلمي، ووجه والدتها، وعرف أنها لم تعرف بعد. أجشهت سلمى بالبكاء، عندما رأته. نظر إليها ونظرت إليه، وعلمت أنه أعفاها من المسؤولية. عانقت عمها، وفي تلك اللحظة، علمت أنها سامحته، وأدرك هو الآخر أنها غفرت له. غادرت الغرفة حاملة فشلها، ورمت بثقلها على الحائط الذي استندت عليه، وهمٌ كبير يرقد على قلبها. وسمعت بابا يفتح، تطلعت حولها، فرأت ذلك الشاب في الغرفة المجاورة يخرج، وينظر إليها وفي عينيه بعض التعاطف، وما لبث أن تجاوزها وسار في طريقه.

لم تسمع سلمى بكاء وقد أقلقها ذلك، لأنها عرفت أن والدتها لو بكت

فلن تكف عن البكاء مطلقاً. خرج عمها وقال: «لم تقل شيئاً، وقد طلبت أن تبقى وحدها.» التفتت إليه سلمى وسألت: «لا... لماذا؟!» أجابها: «لم تستوعب الأمر بعد...» كادت سلمى أن تدخل الغرفة، فأمسك عمها بيدها وقال: «لا.. لا تريد رؤية أحد. قلت لها كل شيء، لم يكن يصح أن أكذب عليها، حاولت مواساتها، لكنها طلبت مني الذهاب وأن أتركها وحدها.»

كاد «سيف» أن يركب سيارته بجوار «سلمي» عندما رأى رجلا خيل إليه أنه يعرفه، يحوم حول سيارته حائرا، وقد فسر دورانه بأن السيارة تشكو من عطل. اقترب «سيف» منه وألقى عليه التحية، وسأل: « هل أنت مبارك ابن خميس؟» أجاب مبارك مقترباً: «نعم أنا ابنه مبارك.» تطلع في وجه محدثه ثم قال متسائلا: «سيف؟» صافح مبارك عم سلمى قائلاً: «يا مرحباً بك يا سيف، لم تزرنا منذ وقت طويل، والدي يسأل عنك دائماً، لماذا انقطعت عنا؟» أجاب سيف: «أنت تعرف أن المشاغل كثيرة، آمل أن كل شيء على ما يرام، ما الذي أتى بك إلى المستشفى؟» أجاب مبارك: «خطيبتي تعرضت لكسر في رجلها، ستكون بخير بإذن الله بعد يومين، أخبرني أنت ما الذي تفعله هنا؟ هل هناك من أحد مريض في العائلة؟» فقال: «ابن أخي توفي..» انكمش وجه مبارك، فأردف سيف: «والدته ترقد هنا، فقد تعرضت لحادث.. إنا لله وإنا إليه راجعون.» قال مبارك بحزن: «إنا لله وإنا إليه راجعون.. فليكن الله بعونكم وعون الجميع.» ساعده في تبديل إطار السيارة، وقبل أن يذهب كلاهما استوقفه مبارك وقال: «أشكرك على مساعدتك، وآسف على تأخيركما.. اعتذر نيابة عني لها.».

أرادت سلمى سؤال عمها عن هوية الرجل. «إنه ابن صديقي، أتى من أجل خطيبته التي ترقد في المستشفى.» أخبرها عمها عن هوية الرجل، عندما شعر بالسؤال يحاول الخروج ولا يجد الطريق. كانا يفهمان بعضهما البعض بطريقة جيدة. قالت: «يبدو ذلك في غاية الروعة، أن يزورها...» تبسم عمها ووافقها الرأي، ثم قال: «نسيت أن أقول لك انه

يعتـذر لتأخيرنـا.» قـالت سـلمى: «يبدو غـاية في الـذوق.» قـال لها عمها: «نعم إنه كذلك وأخوه أيضاً، فوالدهم أحسن تربيتهما.»

ربت عمهـا بيده، التي لا يقود بهـا، على كتفها، وقـال بـود وتفهم: «أنـا سـعيد جداً أننا تصـالحنا، وأريدك أن تعرفي أني آسـف على أية معاناة سببتها لك ولأختك...وسأعمل جاهداً كي أجعل حياتكما أفضل، لا أضمن لك ذلك، لكني أعدك بذلك بلا شك.» كـان تصـالحهما العفوي أفضل شيء حدث في ذلك اليوم المأساوي، وإن كان نفسه مأساوياً فقد أخذت سلمى تبكي، كما لو أنها تفرغ مشاعر سيئة قد خالجتها طوال تلك السنين.

37

كم هي الحياة كبيرة، ضئيلة، واسعة، ضيقة في عيون كثيرين، لا يرون الأمل فيها سوى نقطة بيضاء تبعد عنهم، عميقة سطحية، رقصات حزن، صرخات سعادة، وضحكات، فراغ يحفه فراغ. كم بدت الحياة لسلمى ذلك المساء رمادية، وملونة في الوقت نفسه. كان الجو كئيباً وهادئاً...أزرق حالك الظلام، وقد بدا أن الجميع ينظرون للحياة، في تلك الليلة، نظرة مختلفة. يلف الليل كل ما حدث طوال هذا اليوم بنسماته الثقيلة وهمساته المزعجة وغموضه السخيف. كان يوم خميس تطمح سلمى لعيشه بكل دقائقه دون دراسة أو شعور بالذنب، فهي تمنح لنفسها يوم الخميس إجازة تفعل فيه ما تشاء، ويا للسخرية، فقد تحول هذا الخميس إلى كابوس، ولم تعد بقادرة على عيش أية ثانية أخرى فيه. يعتصر الألم قلبها، بسبب الفراغ الذي يتمدد في منزلها،الذي خلا من أحبائها. والدها في غرفته يقرأ القرآن، وأخويها سعيد وراشد ذهبا لزيارة والدتهما، وشما تستعد للرحيل إلى بيت عائلة زوجها سالم.

«آسفة.» انتهت شما من تجهيز أغراضها، واستوقفت سلمى التي كانت تمشي في أرجاء المنزل تجرفها الأفكار. التفتت سلمى إلى أختها بنظرة متسائلة. قالت شما: «آسفة لأني لم أتواصل معك كما وعدتك... آسفة جداً، على تجاهلي لك، وعلى ظني السيئ بك... وعلى كرهي لك أحياناً، لكن لو أنك تعرفين ما كنت أمرّ به لسامحتني!» بلا تردد قالت سلمى وصوتها يرتجف، محاولة إخفاء رغبتها في البكاء: «لا.. لا تقولي هذا، فأنت لم تفعلي شيئاً تأسفي عليه.. ولا حاجة لطلب السماح يا أختي...

فأنا من يجب طلبه منك.» ضمت سلمى أختها بقوة، وشعرتا في تلك اللحظة أنهما شخص واحد، الهموم مشتركة والأحزان نفسها، وبدا أن اللوم والعتاب قد تلاشى كما لو أنه لم يوجد في قلبيهما يوماً. «لدي الكثير لأقوله لك.» تقول شما. أجابت سلمي: «تحدثي إلي كما اعتدت.. واعلمي أني أختك وأحمل لك كل الحب مهما حدث.» كأنها تهمس قالت شما: «إنه معجب بك.» أخذت شما تحاول الجلوس، فأجلستها سلمى وسألتها مندهشة: «من هو؟» أجابت شما: «سالم.» تعجبت سلمى قائلة: «شما إنك تتفوهين بالحماقات!» سألتها شما: «هل تنكرين أنه كان معجباً بك؟» أجابت سلمى بلا تردد: «لا بالطبع ولكن حدث ذلك منذ زمن طويل، كانت المسألة لعب صبيان لا أكثر...» نظرت شما إلى أختها لبرهة ثم قالت: «لست أعرف، آمل ذلك فهو...».
أخبرت شما أختها كل شيء يتعلق بإعجاب زوجها. استغربت سلمى من تصرف سالم وعلمت أنه يستخدم ذلك لجعل شما تشعر بالسوء، فكرت أنه في ذلك الوقت الذي كان فيه سالم يتردد على البيت لطلب يدها، كانت «شما» صغيرة. «كيف يمكنه فعل ذلك بك يا شما! أن يتجاهلك طوال تلك الأشهر، وكيف لك أنت أن تصمتي وألا تخبري أحداً عن الأمر! ذلك جنون.» أجابت شما: «لا أعرف، كنت أريد إنقاذ نفسي من كل ذلك الألم الذي يسببه تجاهله لي، لقد ترددت دائماً كلما أردت الإتصال بك..
كنت خجلة جداً منك، لقد بدا الأمر وكأني عرضت نفسي للزواج، لم تكن تلك تضحية بريئة على ما يبدو، لست ألقي اللوم عليه أو علي، فكلانا مذنب...فقد كان حقيراً وكنت غبية.» أردفت «شما»: «لست متأكدة من إن كان سيبقى حقيرا، لكني متأكدة من أنني لن أكون غبية بعد الآن، أعلم أنه يرغب في الانفصال، ولكنه لن يحصل على ذلك.» حاولت سلمى فهم ما تعنيه شما: «ما الذي تقصدينه بأنه يرغب في الانفصال! بل ما الذي تعنينه بأنه لن يحصل عليه!» أجابت شما بينما كانت تقف: «قد لا ينجح زواجنا، ولكن الطلاق لن يحصل.» سألتها سلمى: «من الذي

تحـدّث عـن الطلاق علـى أيّة حال؟» نظرت شـمـا لأختها سـلمى وقـالت: «أراك غداً يا أختي.. عليّ بالذهاب الآن».

الأسـئلة تنهش سـلمى، بعد أن عرفت أن أختها تعاني مشـكلة كبيرة. لقد اندهشـت من ذكر الطلاق، وإن كانت قادرة على فهم سـوء علاقة شـمـا بزوجهـا، غـير أن «الطلاق» لم يخطر لها على بال، وهو أمر كان يشـغل بال سـالم منـذ مدة كما اعتقدت شـمـا. كانت سـلمى تقف هنـاك، تنظر لأختها تغادر المنزل، كما غادرته حينما تزوجت، مدركة أن أختها التي عرفتهـا، مختلفة عن تلـك التي تحدثت إليها منذ دقائق، فقد بدت شـمـا قوية، لا امرأة ضعيفة كما يريد سالم لزوجته أن تكون، وكان لا بد على سـلمى طرح ذلك السـؤال على نفسـها: «ما الذي دفع عمـي لإجبار ابنه على الزواج؟».

38

يمشـي سـالم بتثاقل نحو غرفة النوم، كأن جاذبية غامضـة تسحبه، لا عقلـه، أو حتـى قلبـه، هما من يرشدانه إلى حيث يجب عليـه أن يذهب. قدرته على تحليل الأمور، وحيوية قلبه التي كانت تسـاعده على تحديد شـعوره نحو ذا وذاك، تلاشـت، اختفت، منذ تلك اللحظة التى سـمع فيها والده يتسـاءل: «أيـن حفيدي؟» عادة يذهـب النـاس لسـؤال المرأة، لكن «سـيف» يعلم أن ابنه هو الذي سـيحدد ذلك، وأن سالم تزوج وهو مرغم، ولا يريد إنجاب طفل من شما.

عندمـا عـرف «سـالم» أن والـده ينـوي أن يزوجـه بواحدة مـن بنات عمـه، قال إنـه ليس جاهزا للزواج، فقال والده بسـخرية إنه نشـط مع الخادمات، سـواء كانت الواحدة في العشرين أو في السـتين. قال سالم الكثـير حول عدم اسـتعداده لهذه النقلة في حياتـه، وعندما لم يكترث الوالـد برأيه، صـمت وتـزوج. في البدايـة لام والده علـى إجباره على الزواج، لكنه بعد فترة، وصـل إلى تصـور للأمر، وخف اللوم، وأصـبح راغبـا في كسـب حب والـده من جديد، تلـك الرغبة التـي تتعارض مع رغبته في الانفصـال عن شما، فهو يعلم أنه مـا إن ينفصل عن شمـا، لن يعـود هو ووالده كما كانـا. كان هناك تباين في ما يفكر بـه، فمن جهة يحـاول جعـل أبيه يصـدق أن حياته مـع زوجته تجري علـى ما يرام، وبطبيعـة الحـال لن يقضـي حياتـه يلفق ما سـيقول عـن الحياة غير الموجودة مع زوجته، التي يعيش معها حياة موحشـة، بسبب كبريائه الضـائع الذي يحاول أن يسـترده أمامها، ومن جهة أخرى هو خائف

أن يسمح لنفسه أن يستلطف شما، فإن فعل، فسيوافق على ما ألزمه والده به وعندها -برأيه- لن يبقى احترامه لنفسه.

جلس سالم على السرير ودفن وجهه في كفيه. كم أراد الانفصال عن شما، والعودة لحياة الاختيارات؛ للحياة التي عرفها دوماً وأحبها. لكن ذلك لن يحدث الآن، كل ما خطط له انهار عندما سمع ما قاله والده عن «الحفيد». كان يمكن أن يماطل، وأن يقول إن الحفيد قادم على الطريق، ويستمر في حياته المزرية مع شما، لكن ذلك غير معقول، فمن الغباء أن يعتقد أن أباه لن يتساءل عن الحفيد مرة أخرى، وإن كان يريد رضى والده فلا بد أن يتولى أمر ذلك الحفيد المرتقب عاجلاً أم آجلاً.

كان سالم مصدوماً وشعر بضيق في نفسه، وبحياته تتعقد. وبينما كان يخلع ملابسه، أدرك أن مشاعره تجاه الأمر غير واضحة، وأيقن أن عليه إيجاد حل لهذه المعضلة، وقد وجد الحل، وكره نفسه، في تلك اللحظة، لما يعتمل في ذهنه.

تتناثر قطرات الماء على جسده، لتتبخر ما إن تسقط على سطح جلده، الذي تظهر منه شعيرات خشنة على صدره، تمتد حتى سرته. كان الهدوء يحتل أركان المنزل، لكن في داخل سالم عاصفة اشتعلت، اعتقد أن الاستحمام قد يهدئها، ويهدئ من غضبه وتوتره وخليط المشاعر المتنافضة التي تكاد تمزقه. خرج من الحمام، وهو لا يرتدي الكثير، رأى شما تستلقي على السرير على جنبها الأيمن، ترتدي رداء نوم من قطعة واحدة، يبرز انحناءات جسدها، تقرأ كتاباً، ولا تبدو مهتمة به، أو تظاهرت بأنها لا تهتم به. كانت قد قامت بفرش مرقده في نهاية الغرفة، كما اعتادت، كانت إضاءة الغرفة خافتة، بسيطة، ووقف سالم مطولاً دونما حراك، واستمرت شما بالقراءة مقطبة حاجبيها بشكل تلقائي، يحيط بها شعرها الأسود الطويل كأنه لحاف. تحرك سالم أخيراً، لكنه تحرك نحو وجهة لم تتوقع شما أنه قد يتجه نحوها.

39

العقل سريع في استيعاب الأمور، لكن القلب قد يصرخ رافضاً استيعاب ما لا يرغب في استيعابه، وها هي «والدة سعيد» مزيّنة بآثار تلك الحقيقة، ما تزال لا تصدقها، وقد عبرت عنها بصمت يقتل ابنيها؛ صمت من فقد قدرته على الكلام، فمنذ أخبرها «سيف» بما حدث لابنها، ولا يقدر أحد على إرغامها على الانفصال عن الصمت. ربما مع الوقت ستتفهم الأمر، وتقوى على استيعاب المأساة. لم يكونوا حوله، لم يضع أيّ منهم حدودا حمراء كانت أم خضراء في دربه. أهملوه في أهم مرحلة من حياته، حينما كان يحتاج إلى قدوة. كان «محمد» بحاجة إلى توجيهات من شخص عاقل، لكن ذلك الشخص لم يوجد في حياته، فقد أهمله الجميع، كل منهم منشغل بهمومه واهتماماته لدرجة تمنعه من الالتفات للآخر، كان من الصعب غض النظر عن فكرة تحوم حول هذه المأساة، وهي أننا قد ننهمك في الحياة أو ربما في أنفسنا أو في أيّ شيء، لكن الموجود حولنا وما يحوينا، يظل أهم من الحياة أو أنفسنا أو أيّ شيء آخر، لأن ما حولنا هو الحياة؛ ما حولنا هو ما يحدد كيف نكون.

عاد راشد للمنزل بعد أن أصرّ سعيد على النوم بالقرب من والدته. كان قريباً منها في ذلك الوقت أكثر من أيّ وقت آخر، كم أراد أن يعيد الوقت للوراء كي يغير ما حدث، ثم تمنى لو أنه يغفو فيصحو ليجد نفسه في الثالثة من العمر، همّه يقتصر على قضاء وقت ممتع، تناول الحلويات وإزعاج الآخرين، فتح عينيه ليعلم أن أيّاً من ذلك لن يحدث، لكنه شعر فعلاً بأنه طفل صغير، تحت جناحي والدته، اللذين تعبقان بأريج محبة

لا تشوهها شروط، ضعيف أمام قوتها المتحطمة، وصمتها، ودموعها التي لم تسقط بعد.

xxx

لنصف ساعة، حاولت «طفلة» إقناع «مبارك» بالرحيل، بعد أن صرفت معظم أفراد أسرتها الذين تدافعوا للمستشفى للاطمئنان عليها، لكنه كان يردد بعناد: «كيف أتركك وحيدة! لا أقدر.» في النهاية خضع لرغبتها وانصرف. وصل مبارك إلى منزله وصعد إلى الطابق الثالث الذي يتخذه جناحا خاصا به، كأنه منزل منفصل يحتوي على كماليات وافية، خلع ملابسه وارتدى ثوب نوم مريح، أطفأ المصابيح المضيئة، أشعل مصابيح تساعد على الاسترخاء، بلونها الدافئ، جرفته الأفكار نحو الكنبة، فاستلقى عليها، وباله مشغول بأمور عديدة. بعد دقائق، رمى بكل تلك المشاغل جانباً كما اعتاد، وما إن فتح التلفاز حتى أغلقه. كانت القنوات مملة، أغان سخيفة، أفلام شاهدها سابقاً، ذهب إلى غرفة، نومه الواسعة التي يطغى عليها اللون الأحمر والبرتقالي بدرجاته. داعبت خيوط السجادة الناعمة أصابع قدميه برقة، حينما شق طريقه نحو إحدى الزوايا، وجلس على كرسي جلد بلون الكاكاو الغامق، تناول هاتفه المتحرك، وبدأ يطلب رقم هاتف منزل أخيه هلال، شعر بأنه يرغب في الاتصال بتلك الفتاة التي وقع رقمها بين يديه صدفة، حينما كان ينوى الاتصال بأخيه هلال عن طريق رقم منزله بعدما وجد هاتفه المتحرك مغلقاً.

xxx

كانت سلمى عائدة من غرفة أخيها راشد، عندما فكرت أن تتصل بشما، لكي ترى ما تسعى خلفه أختها، لم تكن تنوى الإطالة في الحديث، لكن شما كانت تطيل في الكلام قدر إمكانها. استلقت سلمى في غرفتها، منبطحة على سريرها، وهي ما تزال مرتدية الثوب الذي لبسته طوال اليوم، كانت متعبة، من الصعب عليها أن تجد طريقة للحياة من جديد

وسـط ركام تلك المأساة، غير قادرة أن تطيل الحديث في أمور غير وفاة أخيها الصـغير، كأنه من الخطأ أن تذهب وتأتي، تفعل ذا وذاك أو حتى أن ترتشف المـاء، وهي لا تفكر بفقدانهـا لأخيها. ومـا إن أغلقت الخط مع أختها حتى رن الهاتف فجأة. كانت سلمى متأكدة أن المتصـل هو أختها، فأجابت بسرعة: «هلاّ تعاملت مع الوضع!» أجاب صوتٌ بخشونة تتدفق في الخط بسهولة: «نعم؟».

40

فقـدان غـال أمــر يدركه «خميس» والد «مبـارك» جيداً. منذ عشر سـنوات فقـد زوجتـه، وهــو أمر يشـعره بلوعتــه في كل لحظــة، كـان متعلقاً بـهـا، ومــازال حتى هذه اللحظة، كمـا لو أنهـا تعيش معه، يراهـا دائماً كسراب؛ وجهها الذي أحبه يتبدد مع ضوء النهار، ويظهر في ظلام الليل. بعد كل تلك السنين، لم ينقص حبه لها، ما يزال يعيش، حتى بعد موتها.

ذات يـوم، بعد أربع سـنوات من زواجهما، وإنجابها لمبــارك وهلال، حدث خلاف بين «خميس» وزوجته، غادر البيت غاضبا، ذهب إلى منزل «سيف» صـديقه وجاره في ذلك الوقت، الذي كان قد دعا أصدقاءه للسهر في بيته. اتصل بمنزله في منتصف الليل ليطلب السماح من زوجته، لكن أحدا لم يرد، في تلك اللحظة، سمعت زوجته رنين الهاتف في الطابق السفلي، وما إن نزلت درجتين، حتى وضعت رجلها على كُرة خاصة بابنها مبارك، فإذا بها تسقط بعنف على وجهها، ثم ينتهي بها الأمر إلى نهاية الدرج، لتموت ببطء وهي تسـمع رنين الهاتف. كانت تدرك أن المتصـل هو زوجها، وكانت ترغب في الصراخ، في أن تنادي أحداً لينقذها، لم يكن بمقدورها في تلك اللحظة، غير أن تبقى راقدة تنزف دمها حتى فارقتها الروح. اسـتيقظ ابنها مبارك وقد كان في الرابعة من عمره، ومن الصـعب عليه التعرف على والدته وثيابها مشبعة باللون الأحمر. تملكه الخوف من تلك المرأة الغارقة في دمائها، وأخذ يبكي وهو يضم كُرته إلى صدره، بعد مرور ساعة من اتصال «خميس» عاد إلى منزله بعد انتهاء السهرة، رافقه «سيف» ليكملا حديثاً خاصاً، ثم تركه عنـد باب منزله، عندما خطا خطوتين نحو الدرج الذي يوصـل إلى الطابق

العلوي، رأى زوجته غارقة في دمائها وابنه شبه نائم والدموع جافة على خدّيه والكرة في حضنه. كم تمنى لو أن المنزل الذي دخله لم يكن منزله، لكن ذلك محال، تجمد في مكانه، حتى استطاع فهم الوضع، وصرخ بقوة وصلت إلى سيف الذي عاد إلى منزل صديقه راكضا، وجعل الجيران يستيقظون من سباتهم. كان المشهد لا يمكن احتماله، وعندما صعد «سيف» الدرجات ورأي «خميس» يحتضن زوجته الميتة، لم يكن قادراً لأول وهلة على التفريق بين الميت والحي، كان خميس شاحباً كشبح، وثوبه مغطى بدم أم أولاده، انقض «سيف» على «مبارك»، الذي كان جالساً على الدرج، ليرى ما إن كان حياً أم ميتاً، فقد كان ثوبه متسخًا هو الآخر ببعض الدم. اتصل «سيف» من فوره بالإسعاف كان من المفجع أن «خميس» لم يخسر زوجته فحسب، بل ابنا أيضاً، فقد كانت زوجته حاملاً، في الشهر الثاني، وكلاهما لم يعرف بالأمر، قبل أن يعلمه الطبيب. تحطم «خميس» لكنه قاوم أحزانه من أجل ولديه. كان يمكن أن يبقى حزيناً في فقاعة كآبة طوال عمره، كان من الممكن أن يرمي أبناءه عند أهل زوجته، ويحاول العيش من جديد، أو ربما الانفصال عن الحياة، كان من الممكن، بسخافة، أن يعاقب ابنه الصغير على ترك الكرة على الدرج، وأسوأ ما كان يمكن أن يفعله هو أن يلوم نفسه على موتها، فهو الذي اتصل بها في منتصف الليل، هو من دفعها إلى نزول الدرج، لكنه قاوم ذلك، وعاش ليربي ولديه. لم يخف عنهما أي شيء، وعندما اشتد عودهما، أخبرهما بحادثة وفاة والدتهما، رغب أن يقيم ذكرى والدتهما في روحيهما، لم يرَ أنه من المؤذي أن يخبرهما عنها كما قال له الكثيرون، بل رأى أنه من المؤذي أن لا يخبرهما عن المرأة التي أنجبتهما. أراد أن يرسم ملامحها لتتذكرها عيونهما أينما تلفتا، أو هزهما الحنين إلى ذراعيها. كانت كيفية تصرفاتها، وطريقة كلامها وثرثرتها، وحتى تفاصيل موتها، محفورة في قلب كلا ولديها.

41

لم يـدرك كل مـن شـمـا وسـالم حتـى الآن حقيقـة الحقيقـة التـي تحف بوجودهما، ويعوق غشـاء النكران نورها من الانبثاق. فشـما تعرف ما تريد، ولن تسـمح لأي شـيء بإعاقة حصـولها على مبتغاها. حصولها على الطلاق أمر لن تقبل به، فهي ترى أن أسوأ ما يمكن أن يحدث لها هو أن تُطلق بعد أشـهر من زواجها، تدرك أنه لا يرغب في الاسـتمرار معها، لكن عدم طلاقه لها طوال ذلك الوقت وموافقته على العيش معها، إشارة كافيـة كـي تبدأ بالنظر للأمر بطريقة جدّيـة. لا تعلم ما إن كانت قادرة على احتمال معاملته السيئة لها، وقد حاولت مراراً عدم التفكير بذلك، ورغبتها في إنجاب طفل منه، سيُركز دعائم علاقة دائمة بينهما، لكنها لم تكن تعرف ما إذا كانت مستعدة للعيش مع شخص يسبب لها كل ذلك القدر من الألم.

رمت شـما بكلّ ذلـك جانباً، بعـد أن أنهت المكالمة مع أختها، وجلسـت علـى طرف السريـر، والتفتت لزوجهـا الراقد في فراشـها، دون أن تنظر إليـه في بادئ الأمر. أسـقطت عينيها على عينيه أخيراً، قائلة: «فراشـك في الأسـفل سـالم.» أجاب وهو يقف متوجّهاً نحو الفراش: «أعلم.» طوى الفراش ووضعه في أحد الخزانات، ثم عاد إلى السرير، وقال وهو يجلس: «ما الذي سـتقوله أمـيّ حينما تعلم أني أنام في مـكان وأنت في آخر...» فهمت شـما قصـده، وشـعرت براحة أكبر، حينما رأت أنـه عاد لطبيعته الوقحة. من الغريب أنها تحبه لنفسـه، لا لأيّ شيء آخر؛ للشخص السيئ الذي يسيطر عليه في معضم الأوقات: «إذاً تجد أنه من الخطأ أن تنام في

مكان وأنا في آخر.» نظر إليها، وقد بدا لبرهة من الزمن في عيني شما شخصاً مختلفاً: «بالتأكيد، ما رأيك أن نغيّر ذلك الوضع؟» استقامت شما ولم تعر ما قاله أيّ اهتمام. صحيح أنها لا تقدر على أن تصبر أكثر من ذلك لتصحيح علاقتها بزوجها، لكن هذه الليلة لم تكن في نظرها وقتاً جيداً للبدء.

ارتشفت القليل من الماء، وقالت: «غيّر ما تريد يا سالم..أما أنا فسأنام.» استلقت شما بعد أن أطفأت النور. انحنى سالم نحوها—وقد شعرت بأنفاسه تخترق جسدها— وقال: «فلنغيّر الوضع...» أجابت شما بصدق: «لا أعلم؟» قال بصوت يحكمه الإصرار: «أما أنا فأعلم.»

xxx

في إحدى غرف المنزل نفسه، كانت «نورة» التي تكره النوم على الأسرة، وتجهز كل ليلة فراشا على الأرض، بجوار سرير زوجها، تتقلب في فراشها، دون أن تغمض جفنيها. هناك ما يجعلها غير قادرة على النوم؛ إنه السر الذي تخبئه عن أختها. حدث ذلك قبل وقت طويل، لكن لو كان «زايد» قادراً على العيش بشكل طبيعي، لو كان قادراً على الحركة والذهاب والمجيء لاستمر في زواجه الثاني. «نورة» قلقة رغم أن كل شيء قد طُوي وأصبح من الماضي. تشعر بأنها قد خانت أختها، لحظات تشعر فيها بالسكون وأخرى بالسوء: «لقد انتهى كل شيء... الحمد لله، انتهى كل شيء.» كانت «نورة» سعيدة بأن صديقتها قد رحلت، وفسخت عقد الزواج في المحكمة، بحجة أن زوجها غائب منذ سنين، لكنها كانت خائفة من أن يعود أيّ خبر أو ذكر لها. لا تدري «نورة» أنها في نعمة كبيرة، فالسر الذي تعلمه ليس بكامل.

كان «زايد» هو من يعرف السر من جميع جوانبه، وهو الآخر الآن، حيث يتمدد على فراشه، بعد أن وضع القرآن جانباً، يشعر بدغدغة غريبة؛ شعور غريب يحول بينه وبين النوم، الذي تتوق له عيناه. لقد فقد حياته الثانية، حيث كان يجد الاهتمام والعاطفة، وفي الوقت نفسه، رحل

عن صـدره حمـل ثقيل، فقد فـاجـأته زوجته الثـانيـة، في بداية زواجهما السري، عندما أخبرته أنها لم تتزوج مرةً واحدة فقط، بل تزوجت مرتين، ولم يكن ذلك ليهمه، حتى أخبرته أن زوجها الثاني كان أخوه «سيف».

تقلبت «نورة» على فراشـها، لا تستطيع النوم: «هل كانت أختي ستخفي عنـي أمـراً هـامـاً كهـذا، لو كان ذلك مـا حدث معي؟» كانـت جاهلة بما حدث في الخفاء. كان ذلك في الماضي، وفضل زوجها عدم إخبارها به. لـو عرفت نـورة أن زوجها قد تزوج عليها، لفعلـت الكثير. فلم تكن يوماً مهملـة لـه، لبت جميع رغباته، كانت زوجة صـالحة وأماً، والأهم امرأة حقيقية، لم تشعر بأن زوجها ينقصه شيء، لكنه ابتعد عنها نحو أخرى، لم يكن هناك أيّ عذر ولو احتاج لعذر فلن يجده. كان بعيداً عنها عاطفياً، ولم يفهم قدر الألم الذي عانته في التواصل معه، ومعرفة ما يشكو منه، لم يكن يريد منها سوى أن تسكت، وتتصرف كما لو أنه من الطبيعي أن يعاملها كأنها فراغ. كانت نورة، أثناء أرقها، تتمنى أن يبقى الأمر سراً، لا تعـرف عنه أختها شـيئاً، وتخيلـت في تلك اللحظة بالـذات أن «زايد» أخفى الأمر عن زوجته كي لا يجرح مشـاعرها، وعندما افترضت، لو أن الأمر حدث لها، سـألت نفسـها، قبل أن ترضـخ لقوة النوم اللطيفة: «هل كنت سأسامحها؟».

42

«من معي؟» سألت سلمى.

«أنا الرجل الذي وجد رقمك بالصدفة ليلة أمس.» أجاب مبارك. سألت سلمى مجدداً والتعجب واضح في نبرة صوتها: «آسفة لست أفهمك؟» قال مبارك وهو يحاول تبديد بسمة علت شفتيه: «أسباب بكائنا عدّة ولكننا نبكي بالطريقة نفسها.» عرفت سلمى أخيراً المتصل، وشعرت بالغرابة لاتصاله مجدداً. قالت: «لست أعلم ما خطبك ولكني سأغلق الخط الآن.»

لم تعتد سلمى التحدث مع الشبان كما تفعل الكثير من الفتيات في الخفاء. وتندهش من أنهن يجدن الأمر عاديا. أحيانا تفكر: ألم يسألن أنفسهن عن سبب فعلهن لذلك سراً؟ فأي سلوك نرى أن لا خطأ فيه نفعله أمام الناس، فمنذ متى تقترن كلمة «عادي» بالخفاء؟ لا يمكن أن يكون الأمر عاديا، هي تعرف ذلك، فالفتاة التي تتحدث مع شاب يُنظر إليها على أنها ساقطة، ويتم رفضها، على عكس الشاب الذي يقوم بأسوأ الأمور، ويتم تجاهلها فوراً. كان ذلك محيراً بالنسبة لها، وهي تظن أن ذلك الشاب المصر على الحديث معها واحد من هؤلاء الشبان، الذين لديهم وقت فراغ يؤهلهم للركض حول العالم ألف مرة، ولديهم قوائم بأرقام عشرات الفتيات اللاتي يتلاعبون بمشاعرهن، حتى تخطب والدتهم لهم فتاة لا مثيل لها، حافظت على نفسها لزوج المستقبل الذي لم يفكر بها يوماً، ولم يفكر بالمحافظة على نفسه.

رن الهاتف مرة أخرى. قال فورا: «أرجوك... لا تغلقي الخط مرة أخرى،

أرجوك...» سألت سلمى: «هل اتصلت بي صدفةً الليلة أيضاً؟» أجاب: «لا.. أنا لا أؤمن بالصدفة». سألت سلمى: «ماذا؟...من لا يؤمن بالصدفة؟ ثم ألم تقل إنك وجدت رقمي بالصدفة ليلة أمس؟» أجاب مبارك وقد شعر بأنها ذكيّة، فلم يعتقد أنها قد تستخدم شيئاً قاله ضده: «نحن نقول أشياء لا نؤمن بها...فليس كل ما نقوله نؤمن به، أليس كذلك؟» سألت سلمى: «إذاً تعتقد أنك قادر على التشكيك بإيمانك بجملتك الغبية تلك!» ضحك مبارك: «أعلم أنك لا تستطيعين التحدث معي...» صححت له: «بل لا أريد التحدث معك.» قال مبارك: «أنت لا تفهمين مبتغاي؟ لذلك لا تريدين التحدث معي...» ثم أردف: «هل تظنين أن رجلاً سيتحدث مع فتاة عن الإيمان بالصدفة في وقت كهذا؟» شعرت سلمى بأنه على حق فاستلقت، وقالت: «أرجوك... لا تتصل على هذا الرقم مجدداً، لدي أهل سيشكون بي، ولا أرغب في أن أكون موضع شبهة... أعترف بأنك كنت محترماً حتى الآن، وأشكر لك ذلك، ولكن افهمني علي بإغلاق الهاتف الآن...»

سمعت سلمى الرنين مجددا. «مرحبا، هذا أنا مجدداً... اسمعي ما لدي، ألا تشعرين بالفضول لمعرفة السبب الذي يدفعني للاتصال بك مجدداً...» تنهدت سلمى وقد أيقظ كلامه فيها الفضول، وإن كانت لا تزال تشعر بالسوء لأنها تتحدث مع شاب. «لست أبحث عن عشيقة...» قاطعته: «إذاً تخون عشيقتك!» ضحك، ثم أصبحت نبرة صوته أكثر جدّية: «سأكون صادقاً معك، أنا مرتبط، وأحبها أكثر من حبي لنفسي، لكن أشعر بأنه يجب علينا أن نكون صديقين...» بتهكم سألت سلمى: « صديقان؟ ألا تفهم...» فقاطعها: «نعم ما الخطأ في ذلك، فعندما تحدثت إليك بالأمس، شعرت بأني أريدك كصديقة، لدي الكثير من الأصدقاء والصديقات ولكنك...» قاطعته سلمى سائلة: «هل تعرف حبيبتك..» صحح لها: «خطيبتي.» أكملت سلمى وقد زادها علمها بأن لديه خطيبة راحة وكذلك استغراباً: «هل تعرف خطيبتك بأن لديك صديقات؟» أجاب بحماس: «طبعاً، فصديقاتها صديقاتي وصديقاتي صديقاتها...هل ترين خطبا

في ذلـك؟» أجابت: «إن كانـت هي موافقة على أن تحوم النســاء حولك، فرؤيتــي لخطـب في ذلك لا يهم.» قــال: «بالطبع تهمنــي رؤيتك! أكترث بمعرفة كل شيء عنك كشخص.. هلاّ تعطيني فرصة؟».

43

بدا الليل طويلاً، وذهن «زايد» مشغول بأمور شتى. يحاول جاهداً النوم الذي برع فيه لسنين طويلة. يفكر أنه من الجيد أننا لا نكون على علم بكل شيء، فإن علمنا لحقيقة بعض الأمور، والأشخاص، قد ينثر كل ما بُني في مستنقع النسيان. ما حولنا ليس دائماً حقيقياً، وليس كما نظن، وهذا الغموض الذي تسبح فيه ملائكة الخداع والكذب أحياناً، وترقص فيه شياطين الوفاء والحقيقة أحياناً أخرى، قد يكون هو الجزء الأكثر جمالاً في الحياة، وكذلك الأكثر مرارة. يلوم نفسه على اشتياق يقبض على قلبه، لعائلته التي كان يعيش معها في السر.

لكن الأمر لم يكن جيداً، فقد كان يعيش مستمتعاً هناك في الخفاء، لكنه ما إن كان يدخل بيته يتجهم وجهه، ويبدأ بإطلاق الشتائم على الحياة الكريهة التي يعيشها. يا له من شعور قبيح ذلك الذي يستحوذ عليه، يشعر بذنب عظيم لرغبته في ضمهم مجدداً إلى صدره، ولإحساسه بحب زوجته تلك له، حب كان مزيفاً، مجرد أداء بارع منها، استمرت فيه كي تضمن استمرار اندلاق المال والرعاية عليها وعلى أطفالها، لكن كل ذلك يختفي في برهة، ويبقى الاشتياق ولوم النفس والشعور بالذنب، حينما يفكر بأنهم لم يعودوا موجودين في حياته بعد الآن، يترك ذلك مشاعر متناقضة: حزن وسرور في الوقت نفسه.

يا له من ارتباك يعيشه «زايد» في تلك اللحظات، يعتصره الألم كلياً، حينما يفكر بخيانة زوجته الثانية. يشعر بالاشمئزاز من نفسه، فقد فعل الشيء ذاته بزوجته وعائلته الأولى، مهما كانت الأعذار والأسباب،

فهو يعلم أن التواصل معها كان سيحل كل شيئ، ويقضي على رغباته الزائفة التي خلقها الفراغ، ولكنه لم يجرّب فعل ذلك مطلقاً، ولم عليه أن يجرب بما أن خيارات عديدة متاحة له، كان شعورا يستحق لوم نفسه عليه؛ أن يشتاق لضم أطفال امرأة أخرى، في يوم توفي فيه ابنه الذي لم يعرفه يوماً، والذي لم يُعط فرصة ليعيش، ولبرهة من الزمن نسي أن ابنه توفي بل نسي أن لديه ابناً سيأتي الناس لثلاثة أيام متواصلة للقيام بواجب العزاء.

طوال سنين ظلم عائلته، لم يجرب يوماً أن يتواصل مع أبنائه، أن يقوم بنشاطات معهم، أهملهم كما لو أنهم أطفال التقطهم من الشارع. لم يشاهدوا يوماً ابتسامة ترتسم على وجهه، ولم يفكر يوماً باصطناع واحدة، كان يطل عليهم متصلباً كخشبة تدّعي أنها صخرة، قاتم كإنسان التهم لتوه ذئباً، متشنج الوجه كما لو أنه شم رائحة قذرة. ظلمه لهم لم يكن مادياً بل أسوأ، كان إهمالاً عاطفياً، نحت داخلهم رسمات بشعة، وشعورا بأنهم ارتكبوا أمراً في غاية البشاعة، عاهات نفسية ما زالوا يحملونها داخلهم حتى الآن.

نام زايد أخيراً...

44

لا تجرؤ سلمى على اتخاذ تلك الخطوة التي يمكنها أن تدمر راحة بالها، ونظرة إخوانها لها، إن تحدثت معه ثانية. من الصعب عليها أن تقرر، فبالرغم من نبله، ولهجته المهذبة، ورغبته أن يكون صديقا لها بنية حسنة، ترى أن عليها رفض عرضه، وإن لاحظت أن الشعور بالذنب، أثناء تحدثها معه، يتلاشى تدريجيا. خافت سلمى لدقائق من نفسها، حينما شعرت براحة أثناء المكالمة، لم تنكر أن ما تفعله لا علاقة له بالمنطق، وكذلك لم تنكر–بينها وبين نفسها– رغبتها في التحدث معه، ولم تتردد بإخفاء ذلك، كما أنها لم تكترث ما إن كان رجلاً أو امرأة؛ إنه صوت لن يراها مطلقاً، مجرد صوت، يمكنها أن تكون أيّ شخص تريد حينما تتحدث معه. كان ذلك مريكاً، بغض النظر عن نوع العلاقة التي يطمح في بنائها معها. لا..لا يمكنها أن تتحدث إليه مجدداً. في مكان ما من أعماقها تعلم جيداً بأنها تريد التحدث إليه، تقنع نفسها بأنه لن يكون شخصاً بل صوتاً، تقول له ما تشاء، دون اكتراث بما قد تقوله. يبدو أن كل إنسان بحاجة إلى ذلك الصوت في حياته، كي يطلق العنان لنفسه، كي لا يفكر بما يقول، كي يكون له صوت يخاطب به الآخر. من المستحيل على سلمى أن تطلب من نفسها الموافقة على عرضه بالصداقة، وإن كان يبدو مختلفا، فكره بريء، كلامه صادق، لغته صريحة، والأهم لا يبحث عن مغامرة عاطفية. حاولت إقناع نفسها بأن الأمر سيكون كالتحدث مع نفسها، مع وجود فرق واحد وهو سماع صوت النفس وكذلك وجود التناقض.

دمدمت سلمى بكلام لم يفهمه، ثم قالت: «إن تحدثي معك خطأ.. هل تفهم ما أقوله؟» تنهد قائلاً: «نعم، ولكني لن أتوقف عن الاتصال بك، أريد أن نكون أصدقاء، أنا جاد بذلك...فقط على الهاتف، اعتبريني صديقتك، انظري إلي كفتاة...» ضحك كلاهما: «هل ذلك صعب جداً؟» لم تجب سلمى، ثم سألته: «لماذا أنا؟» أجابها بلا تردد: «تبدين لي مثيرة للاهتمام...» فقالت: «صدقني لست كذلك.» قال بنبرة حزن: «يؤسفني أنك لا تدركين ذلك.» قالت سلمى: «حسناً يا...» قال دون تردد: «مبارك.» قالت سلمى كأنها تمحو اسمه من فكرها: «لا.. لا تقل لي اسمك! لن أتحدث معك مجدداً.. فلماذا تخبرني معلومات عنك!» أجاب: «لم لا؟ تشعرينني وكأنك ترتكبين جريمة! سوف تتحدثين معي غداً.. أنا متأكد من ذلك، ولا أرى خطأً فيما تفعلين مطلقاً!» صمت كلاهما. سألها مبارك: «ما اسمك؟» قالت منفعلة: «ماذا! أقول لك اسمي!» ضحكت: «ذلك لن يحدث.» سألها: «لماذا تجدين أنه من الخطأ إخباري باسمك!» أجابت: «لأن.. لأني. لا أستطيع، أنا لا أستطيع فحسب.» قال: «إذا سأعرض عليك التالي...» قاطعته سلمى متهكمة: «تريد اسم العائلة؟» ضحك قائلاً: «بما أنك تمانعين إخباري باسمك، هل تمانعين لو سميتك؟» تنهدت سلمى، ثم قالت: «مبارك، سأغلق الخط الآن وأطلب منك ألاّ تتصل بي مجدداً، أرجوك...» قال مبارك: «سلمى، يحزنني أنك ترفضين صداقتي علماً بأن نيتي حسنة كنيتك...» تعجبت قائلة: «سلمى؟» قال: «إنه الاسم الذي اخترته لك...» ارتبكت حينما وجدت أنه سماها باسمها. قال بحماس: «إنه اسمك الحقيقي، أليس كذلك؟»

أغلقت سلمى الهاتف وقد شعرت بتوتر لا تستطيع تحمله، وما إن كانت على وشك الوقوف لإخراج الهاتف من غرفتها، حتى رن مجدداً. «آلو...» أجاب مبارك، قالت سلمى بغضب: «هل تعلم أنك تحرجني وتضعني في موقف سيئ جداً.» أجاب معتذراً: «آسف جداً، ولكن كنت أريد أن أسألك سؤالاً وأود أن أسمع إجابتك ليلة غد، ما رأيك؟» شعرت سلمى بأن

نيته حسنة، لكنها ليست في حاجة إلى ما يزيد حياتها تعقيداً. قالت رغما عنها: «تحدّث!» فسألها مبارك: «الموت...ماذا يعني لك الموت» صمتت سلمى برهة، ثم قالت: «هل كان ذلك سؤالاً؟» قال مبارك: «نعم إنه كذلك.» سألته: «وهل تتوقع مني أن أتحدث معك ليلة غد كما ذكرت لأطلعك على جوابي؟» فأجاب بعفويّة: «نعم.. أنا متأكد من أنك ستكونين مفهوماً خاصاً بك عن الموت، فإن كانت لك تجربة معه.. حينها لا يسهل علينا صنع تعريف له.» قالت بتعجب: «ولم أنت واثق جداً من أنك ستتحدث معي ليلة غد!» أجاب: «أنا متأكد فحسب، ثم ليس علينا أن نجد الأجوبة لكل تساؤل.» صمت كلاهما. «حسناً سأتركك الآن كي تنامي.» لم تصدّق سلمى أذنيها، من أين أتى هذا الرجل، ومن أين له كل هذه العذوبة؟ «تصبحين على خير سلمى.»

45

ثلاثـة أيـام حزن رسـميّة، فيها لم يكف الناس عن القـدوم لمنزل عائلة زايـد لرفـع العزاء. تمر تلك الأيام ببطء شـديد بـالنسـبة للجميع. شـعرت سلمى بـأنـها لم تعد ترى الألوان من حولـها، بدا كل شيء بـاللون الأسود، أرادت أن تـختفـي مـن الوجود، أن تـهرب من حيـاتهـا، ومما تمر بـه الآن. كانـت ضـعيفة لا تقـوى أيّ ذرة في كيانهـا على الاسـتمرار. كانت في الثانوية العامة، وسيتحدد هذا العام ما إن كانت أهلاً للخطوة الأكبر في حياتها، كيف لـها أن تسـتجمع نفسـها، لتتخطى ما هي فيه الآن، يجب عليهـا إيجـاد طريقة تجعلها قـادرة على الوقوف، هل تسـتطيع تحويل الضـعف في داخلهـا إلى قـوة، هـل تسـتطيع أن تحـاول ولا تتوقف عن المحاولة التي سـتمكنها من المضـي قدماً. القـرارات التي تتخذهـا الآن حاسـمة، وهـي وحدهـا التي ستقرر إمـا أن تستمر في قنوطها وخضوعها لقسوة الظروف، وإمـا أن تلملم نفسها وسط الفوضى. هل ستعرف سلمى هويتهـا ومـن هـي في الحقيقة، هل سـتتمكن من تجميع فتـات روحها وسـط هذا الرمـاد وتكون المرأة التـي عليها أن تكـون. ظلت تطرح على نفسـها هذه الأسـئلة، ومـا إن وجدت فرصة حتى لجأت إلى عمها لتطرح عليه سؤالا آخر ظل يعذبـها فترة طويلة.

«أعلم أن هذا ليس الوقت المنـاسب...» قـالت سلمى لعمها بعد أن وجدت نفسها منفردة بـه أخيراً. «سـلمى، سيكون من الصـعب علي أن أخبرك السبب الذي جعلني أتحول لمجنون بقراراتي...» نظرت إليه سـلمى، وشعرت بـأنه عرف السؤال الذي تود إجابة لـه. «ولكني مدين لك بـالتفسير...» تنهد عمـها: «لكني

أخشى أنك قد تفقدين احترامك لي إن علمت بـ...» نظرت إليه بثقة قائلة: «إياك أن تعتقد يوماً أني قد أفقد احترامي لك.» مسح على وجهه: «ارتكب الزنا مع خادمتين.» و حكى لها ما كان من سالم مع الخادمات. كانت سلمى تصغي إليه جيدًا وشعرت بأنها لن تقدر يوماً على فهم الشعور بخيبة الأمل في شخص ربيته ووضعت عليه آمالا كثيرة: «لقد كنت غاضباً عليه جداً...أذكر أني كنت أريد قتله وإنكار أنه ابني.» ذلك الغضب الكبير، ليس من السهل على سلمى، تخيل الحرارة التي يشعلها في جسد الإنسان، حرارة تسعى لسحق الروح.

«عمّي يبدو أنك غاضب بالفعل على سالم، هل غضبت على الخادمة! هل فكرت بقتلها هي...؟» قال: «لكنه ابني من ربيت وأحببت، كان من الممكن بالنسبة لي أن أصب جام غضبي عليها هي فقط... وأعفيه من كل شيء، لكن يستحيل عليّ أن أنكر رؤيتي له في ذلك الوضع، ابني الذي اعتقدت بأني أعرفه.» كان العم يحاول تمالك نفسه، وألا يعود لاختبار مشاعر الغضب الصعبة. أمسكت سلمى بيد عمها وضغطت عليها بشدة: «دعني أكمل عنك الحكاية، أرسلت الخادمة إلى بلدها، وابنك إلى قفص الزوجية...» ثم بنبرة لوم: «ما الذي كنت تفكر به، هل اعتقدت أن تزويجك له سيجعله يمشي على الصراط المستـ...» قاطعها عمها وقد بدا في تلك اللحظات كأنه يريد أن يعود الزمن به إلى الوراء كي لا يزوج ابنه كعقاب وجزاء له: «أرجوك! لا تقولي المزيد... أعلم الآن أني أخطأت، وذلك لم يكن سبباً كافياً لتزويجه بها، ولا يمكنني فعل شيء لتصحيح الأمور، ولكن صدقيني لن أسمح له بإيذائها، وسأكون إلى جانبها دائماً، فهذا أقل شيء يمكنني فعله بعد أن زوجتها بذلك الغبي.» علمت سلمى الآن أن عمها لا يدرك أيّ شيء عن حياة ابنه مع أختها، ويبدو أنها لا تنوي إخباره. كانت سعيدة حينما وعدها بالوقوف إلى جانب أختها، فتبسمت وقالت: «سأصدق وعدك هذا يا عمي.»

46

شعر «زايد» بأنه لا يقدر على تحمل مقابلة الناس الذين لم يتوقفوا عن التردد على منزله، وأراد البقاء وحده قليلاً. حاول أن يكون وديا لأقصى وقت يقدر عليه، حاول البقاء احتراماً للمعزين، لكنه لم يعد يحتمل، فعاد إلى غرفته الصغيرة، وما إن جلس أرضاً دافعاً الكرسي المدولب بيديه بعيداً، حتى رأى «نورة» تدخل الغرفة وتغلق الباب بحذر خلفها: «ما الذي تريدينه؟» أجابت متعجبة: «ما الذي أريده! هذه ليست طريقة جيدة لاستقبالي...» حاول ألاّ ينظر إليها: «نعم.. آسف...» جلست أرضاً قائلة: «لا عليك، فهذا اليوم صعب لجميعنا، لذا لا ألومك على شيء.» تلفتت حولها تتفحص المكان، وصممت حتى سمعت صوت زايد المجهد: «هل حقاً لا تلومينني على شيء؟» نظرت إليه وعلمت قصده: «بالطبع لا ألومك على زواجك بها، لطالما كانت أختي مهملة لك.. ويبدو لي أن ما فعلته لأمر طبيعي ولكن...» سألها: «ولكن ماذا؟» ترددت في الإجابة. «أياً كان العذر، أدركت، الليلة الماضية، أنه من الصعب عليّ أن أتقبل الأمر الآن... إنها أختي و...» نظر لأعلى قائلاً: «تبدين متناقضة في كلامك، فتارة تقولين أن لي حقّا بذلك، وتارة أخرى لا تتقبلين الأمر وأنها أختك! لماذا تقولين ذلك؟

. ألم تكن أختك حينما أخبرتك بقراري؟» قالت بثقة: «كان قرارك لا قراري.. وأنت تعلم أن أيّ شيء كنت سأقوله لن يغير شيئاً في خطتك.» نظر إليها بينما كان يستلقي وهو يقول: «لقد حدث ذلك منذ وقت طويل... منذ سنين، دعينا ننس الأمر.» التفتت إليه قائلة: «كنت بالأمس تكاد

تجن من شدة رغبتك في معرفة أخبارهم، ولكنك اليوم... تبدو وكأنك لم تتزوج منها مطلقاً؟» كان ذلك صحيحاً نوعاً ما. «يبدو لي أن انفصالها عنك لشيء أسعدك في نهاية الأمر، أليس كذلك؟ ما الذي يحدث؟ ما هذا... يا ابن عمي.» قال زايد بتردد: «لا أعرف إن كان يستحسن بي أن أخبرك بما كان يحدث بالفعل؟» شعرت نورة بأبعاد كلامه: «زايد، أيّ شيء ستقوله الآن لن يغير شيئاً على الإطلاق، فكل ما حدث... حدث وانتهى منذ وقت طويل.» حاول أن يهرب مما وقع فيه. «مثلما قلت، لا أهمية لكل ذلك... لذا دعينا لا نتحدث عنه...» نظرتها الغريبة جعلته يتوتر أكثر: «لا يمكنني أن أقول لك هذا، فإني لا أعلم عنه الكثير... وقد يجعل حياتك وحياة أخي سيئة، فقد كان أخي شاباً وغبياً، لا داعي للتحدث عن ذلك...» حاولت نورة جعله يتحدث: «أعدك بأن أيّ شيء سيئ لن يحدث، أريد أن أعلم فحسب.» قال ببطء ويحس خافت بالقلق: «إن ما جعلني أشعر بارتياح لانقطاع زوجتي الثانية تماماً عني، هو.. أنها قد تزوجت بأخي من قبلي... لم يكن زواجه بها سوى لعب شبان...» صمتت نورة مصدومة: «ما الذي تقوله؟ هل تعني بأخيك.. زوجي، صديقتي التي كانت مقربة جداً مني.. يا إلهي...»

دخلت سلمى فجأة، ورأت علامات التعجب على وجه خالتها. «سلمى أرجوك هل يمكنك أن تمنحينا دقائق؟» قال «زايد». كانت سلمى على وشك الخروج، فقالت خالتها: «لا لا... لا تخرجي، ابقي...» التفتت إلى زايد وهي تقول: «وعدتك أن أيّ شيء سيئ لن يحدث...» تبادل الجميع النظرات. قالت نورة بينما كانت تخرج تاركةً سلمى مع والدها: «حدث ذلك منذ سنين، لا مشكلة.. حدث منذ وقت طويل جداً.» التفتت سلمى نحو والدها بعد خروج خالتها بينما كانت تحاول أن تفهم الأمر: «هل أنت بخير أبي؟» أومأ برأسه، وكم كان ذلك مناقضاً لما في داخله.

xxx

تمشي نورة خارج المنزل. استوعبت ما فعل زوجها. لم تحبه، لكنها

فهمته. لم يكن هناك مبرر، لكنها وضعت المبررات له. أيّ غضب أو حزن أو قهر أو تساؤل تجاهلته كما لو أنه لم يوجد في داخلها، واستمرت في المشي نحو زوجها. حدث ما حدث منذ سنوات، شاب صغير لديه الكثير من الوقت والمال، والأعذار، لم لا؟ لم لا يتزوج مجدداً، لأسابيع أو لأشهر. كان من المستحيل لنورة أن تثور أو تغضب، فقد فات الأوان على ذلك. لديها عائلة الآن وأيّ تعبير عما داخلها من عواصف، قد تجعل عائلتها تنهار إلى أشلاء، ما عليها سوى أن تصمت وتستمر في أداء واجباتها.

«سالم يريد العودة إلى عمله ومنزله! لا أقدر على إقناعه العكس، أتركه لك، إنه هناك...» قال «سيف» وذهب فوراً نحو سيارته. توجهت نورة نحو سالم الذي كان يلوح لها بيده كي تأتي إليه: «هنا أمي!» وحينما وصلت إليه: «أمّي، عليّ بالعودة، عليّ القيام بعدّة أمور...والدي يرى بأني متعجل...» قالت نوره: «استمع لما يقوله والدك، على الأقل ابق هنا ثلاثة أيام، هل نسيت أنها أول زيارة لك منذ زواجك!» أومأ سالم برأسه موافقاً: «حسناً، ولكن ثلاثة أيام فقط.»

مرت الساعات، وها هو سواد الليل يسيطر على السماء، ويعكس لون حياة البعض. أدركت «نورة» في نهاية اليوم، أن زوجها، سواء كان مثقفاً أم متخلفاً، رضيت به أم لم ترض، لن يشكل فرقاً؟ ستظل النفس تتوق للمزيد والخيارات ستظل قائمة، والمغامرات ستحتاج إلى من يختبرها. لم تكن أختها سوى المنزل الذي يعود إليه زايد متأكدا من أن الخيارات التي أقدم على اتخاذها لن تؤثر في استقراره، لم تكن زوجته سوى جزيرة أمان في مغامرته الجامحة، مشاهدة عمياء لمعركته السرّية، وكذلك كانت «نورة» بالنسبة لزوجها. على أيّة حال، كما قال زايد، مضى وقت طويل، ولا يجب إعطاء الاهتمام لأمر ولى. لقد كانت الصدمة جزاء متأخراً لها على عدم اكتراثها لماضي زوجها، عقاباً لها، لأنها لم تتوقع اللامتوقع. كانت تضع فراشها على الأرض، تستعد للنوم، والكسل يسيطر عليها، والرغبة قوية في النوم هذه الليلة بعد

إرهاق اليوم الطويل، وثُقل الحقيقة التي عرفتها.

عندما استلقت أخيرا. تذكرت أنها لم تضع الساعة بقربها، كي توقظها في وقت مبكر صباح غد. زوجها الذي كان يستحم، في تلك الأثناء، سيخرج قريباً، وستوصيه أن يحضر المنبه، لكنها لم تكن ترغب في التحدث معه. لا بد أن تفعل، فهي أضعف من أن تقف، لذا عليها أن تنتظر دقائق حتى يخرج ويناولها ما تريد، لتنام بسلام، يجب عليها أن تقاوم رغبتها في النوم لدقائق فقط. كان الكسل الذي يهيمن عليها قوياً لدرجة لا تصدق، وبدت كأنها ستفعل أيّ شيء كي لا تضطر للوقوف مجدداً: «أعطني المنبه.» ناولها الساعة وقد اندهش لحالها: «ماذا بك؟» أجابت وهي تنقلب على جنبها الآخر: «متعبة فحسب، تصبح على خير.» نظر إليها بعد أن ارتدى ملابسه وسألها: «ما الذي يحدث يا نورة؟ لست متعبة، هذا ليس خطبك، فإنك لست على طبيعتك!» لقد بدا لها أمراً غريباً أن يتجرأ بالسؤال عن حالها وهو مذنب بخيانتها، قالت له والكلمات تكاد لا تخرج من فمها: «لا شيء، أريد أن أنام فقط.» قال سيف: «أنت تعلمين؟» التفتت إليه: «أعلم ماذا؟».

47

المكان هـادئ في ذلك الوقت المتأخر من الليل، انصرف الرواد، الأضواء ساطعة في البهو المؤدي لغرف المرضى، وجميع الأبواب مغلقة، إلا بابا واحدا خرج منه «مبارك»، على عجل، نحو مكان الممرضات، ألقى السلام عليهن وسأل إحداهن: «متى يمكن لـ» طفلة «مغادرة المستشفى؟» كان من الواضح أنها لم تفهمه جيداً فخاطبها بالإنجليزية: «When could she leave the hospital?» قالت: «Wait for momen.» التفتت نحو أحد الحواسيب، ثم حولت نظرها إليه، ووجهت له بضعة أسئلة عن طفلة، وقامت ببعض العمل على الحاسب، ثم أجابته أخيراً: «Just a couple of days and she›ll be able to leave.» شكرها وتوجه نحو محل أزهار بجانب المستشفى، وبينما كان سعيداً، لأن «طفلة» ستكون قادرة على مغادرة المستشفى بعد يومين فحسب، أخذ مبارك ينظر للأنواع المختلفة من الزهور، وأراد أن يحمل إلى طفلة أكبر قدر منها، طلب من عامل المحل أن يرسل إلى غرفة خطيبته عشرين ديزينة من زهرة التوليب المفضلة لديها.

بعد رجوعه إلى غرفتها بدقائق، دخل عامل يحمل كمية كبيرة من الزهور. لم تبد «طفلة» أية دهشة عندما رأت غرفتها، تمتلئ بالزهور في هذا الوقت من الليل، كانت تعرفه وكان من الصعب أن تنظر إليه كرجل يفعل ما لا تتوقعه، لم يحب مبارك ذلك يوماً، فحينما كان يفعل أيّ شيء لمفاجأتها، يراها تجد ما يفعله أيّ شيء عدا أن يكون مفاجئا لها. جلس صامتا لفترة وكان عليه المغادرة الآن، رغماً عنه، حزينا نوعا

مـا. وعندمـا أغلق بـاب غرفة خطيبته، رأى تلـك الفتـاة التي كانت تبكي بـالأمس مستندة على الحـائط، وقد شعر بطريقة غـامضة أنه يعرفـهـا.

xxx

أمضـت «سلمى» وقت المساء تتعلم الإصغاء إلى الصمت، بجوار والدتها في المستشفى، أصر «سعيد» على البقاء في المستشفى اليوم أيضا، وقال لوالدته، التي لم تكن تجيب على الأسئلة ولا يبدو أنها تسمع ما يقال، إنه لن يتأخر، سيوصل سلمى ويعود فورا. عندما خرجت سلمى برفقة سعيد من الغرفة، رأت ذلك الشخص الذي ساعده عمها بالأمس في تغيير إطار سيـارته، كانت تريد الوصول للمنزل بسرعة، وهي تخفي توترهـا، تريد أن تعرف ما إذا كان ذلك الشاب سيتصل بها اليوم مجددا.

*في المنزل، رن الهاتف. خافت سلمى عندما رأت سعيد، الذي غير ملابسه واستعد للعودة إلى المستشفى، يتوجه نحو الهاتف ويرفع السماعة. عاد الاطمئنان إليها، عندما سـمعته ينطق باسـم «شـمـا». «حسناً شما علي بالذهاب لوالدتي، سـأناول الهاتف الآن لسـلمى.». «شما!» قالت سلمى متنهدة. «نعم، هل أنت بخير؟» سألت شما. «نعم، نعم أنا بخير.. انتظري قليـلاً.» دخلت سـلمى غرفتهـا، ورمت بنفسـهـا على سريرهـا ووضـعـت الهاتف على بطنها الفارغ، ثم سألت أختها: «كيف حالك؟» أجابت شما بتردد: «جيدة، كما أن... أظن أن علاقتي بسـالم بدأت تتحسـن...» ارتفع حاجبا سـلمى قائلة: «حقاً؟ هذا رائع... إن كل ما حدث سـابقاً يا شـمـا عليـه ألا يؤثر فيك، جميعنـا نرتبك ونخطئ أحياناً... صـحيح؟» أجابت شـمـا وقد بدت تتفهم الموقف: «نعم.. صـدقت القول يـا سـلمى... حسـنـاً، علي أن أغلق الخط بعد قليل، كنت أتصـل بك لأطلب منك أن تركزي على دراستك... أرجوك لا تكوني مهملة، فهذه السنة أهم من أيّ سنة أخرى.» كادت سـلمى أن تبكـي، وشـعرت بـأنهـا تفعل هـذا، لا لنفسـهـا فقط، بل لأختها التي لم تحظ بهذه الفرصة. قالت: «أعدك بأني سأكون عند حسن ظنك...لا عليك.» قالت شـمـا: «تصـبـحين على خـير.» كان من الغريب أن

تقدر سلمى على تخطي كثير من أشلاء أمور عالقة، كإعجاب سالم الزائف بها وكالخلاف بينها وبين عمها، بدت سلمى لبرهة إنسانة صلبة في أوقات، وهشة في أوقات أخرى. «آلو...» ولقد كانت حتماً هشة حينما سمعت صوت «مبارك» على الهاتف.

48

كيف يضـحي المرء بنفسه، ويظلم نفسه، كي لا يؤذي المقربين له، ليس ذلـك الحـل الأفضـل، فحينما يفعل ذلك، يصـل لمرحلة، فيهـا يفقد حبه وتقديره لنفســه، وحينها أيّ تضحية في سـبيل حياة أفضل لآخرين، لا تأخذ مكانة نبيلة، فكيف سـيحب الإنسـان أيّ شخص إن لم يحب نفسه أولاً. غريب أن الإنسـان يكون غبياً في المراحل الحاسـمة في حياته. في منـزل «سـيف»، كانت «نورة» تتسـاءل عمـا إذا كان زوجهـا يعلم أنها تعرف عن زواجه بصـديقتها. أرادت أن تنســى فعلته المشينة في حقهـا، لكنه لا يسـاعدهـا. في تلـك اللحظات عليها أن تتمالك نفسـها، وتحاول أن تكون أكثر راحة معه، والأهم مع نفسـها، إن كانت تريد المضي قدما دون اهتمام لما فعله في حقها.

«لست أفهمك.. أعلم مـاذا؟» سألت نورة زوجها. «تعلمين أني بدأت مشروعاً جديداً؟» تنهدت وشـعرت بالراحة. قال بقلق: «أعرف أنك تغضـبين عليّ حينمـا أبـدأ بمشروع جديـد يفشـل في النهاية، ولكـن أؤكد لـك أن هذا المشروع سـينجح!» فقالت نورة: «نعم.. صـحيح، لست غاضبة.. وبإذن الله تنجـح بمشروعك.» صـمت زوجهـا ثم أخلـد إلى النوم بعـد أن أطفأ الضـوء. قررت ألا تحدثه عن زواجه بصـديقتها، وتروض نفسها على ألا تذكره بينها وبين نفسها، وتحاول ألا تلومه أو تغضب عليه. كانت تود، بالرغم من الألم، أن تتصرف مع زوجها بشكل عادي، كأن شيئاً لم يكن، ولا تترك ما عرفته اليوم يؤثر على عالمها، فلو فعلت سـتثير الكثير من المشاكل، ولا تريد لأبنائها أن ينظروا لأبيهم بطرقة أخرى.

في غرفة أخرى في البيت نفسه، لم يكن سالم قد أطفأ نور الغرفة، عندما سمع شما تقول: «سالم، أنا مستعدة أن أنسى كل ما حدث من سوء سابقاً.» كان منشغلاً بهاتفه النقال، فلم يرد عليها. «أريد أن أعيش حياتي وأنت معي...أنت زوجي! لا يمكنك العودة لسلوكك الغريب ذلك، صحيح؟» دفعت كتفه بيدها قائلة: «سالم هل تسمعني؟» لم يلتفت إليها، إلا أنه قال والكلمة تخرج من فمه ببطء: «صحيح.» لم يكن يريد النظر إلى وجهها. التفت إليها أخيراً: «كانت تصرفاتي معك سيئة جداً، أعترف، وذلك لن يتكرر، الآن دعيني لوحدي قليلاً.» ابتسم ابتسامة مصطنعة وابتعد، بعد أن طلب رقما على هاتفه، خرج من الغرفة إلى البهو والهاتف ما زال على أذنه، وبدا أن الشخص الذي يتصل به لا يجيب.

كانت شما راقدة على السرير تفكر في زوجها الحائر الذي كان يحاول الاتصال بشخص لا يرد عليه، وقد بدا التوجس عليه، تناست كل ذلك، وفكرت في الهدف الذي عليها أن ترعاه كل لحظة، عليها الإبقاء على حالتها الاجتماعية كمتزوجة أولاً، ثم محاولة العيش كمتزوجة ثانياً. عاد سالم لغرفته صامتاً، وإن كان متوترا، شعرت شما أنه يفكر في شيء ما، على الأرجح في الشخص الذي يتجاهل اتصالاته. رقد على فراشه، حائرا فيما يحدث مع فاتن: كيف لها ألا تتصل طالبة السماح كما كانت تفعل في السابق! شعر سالم أن هناك خطباً ما يجري معها.

49

تعتقد سلمى أن الليل أجمل وقت في اليوم، وتعلم أنه يجب عليها أن تنام كي تقوى على الاستمرار في حياتها، لكنها ترى بأنها تضيّع أكثر ساعات اليوم جمالا، فالليل يطل بغموضه ويملك العالم، ويسيطر السكون على كل شيء، والهدوء يدفع الإنسان للتحدث مع الفراغ، معظم الكائنات أشبة بميتة: المحلات مغلقة، والأعين مغمضة. الليل إجازة متوفرة دائماً من دوامها المتعب في النهار، فيه تتوقف الحياة عن الحياة. يبدو المشهد لسلمى كصورة متوقفة، كل شيء ساكن، نسمات الهواء الباردة تتفاخر بقوتها الزائلة، عندما تأخذ في دفع الأشجار يميناً ويساراً، نادراً ما تجد قطة قد أشعلت عينيها، فتبدوان كأضواء مقدمة سيارة، تتمطى باحثة عن مكان تأوي فيه، أو كائن من بني جنسها، لتقوم بافتعال شجار معه، فجدول أعمالها فارغ في هذا الوقت. كانت سلمى تشفق على الذين يفوتون فرصة رؤية الحياة متوقفة بطريقة تجعلهم قادرين، بصورة أكبر، على فهم وتقدير أبسط الأشياء، وكان أهم شيء، بالنسبة لها، في تلك اللوحة، هو الظلام الذي يجعل التركيز على أمور أكثر معنوية. لكن «مبارك» الآن قد بدأ يسلب منها إجازتها، حينما بدأ الاتصال بها.

«هذا أنت!» ضحك مبارك. «نعم هذا أنا مبارك، أود لو تناديني باسمي يا سلمى.» أجابت: «ولكن مناداتي لك باسمك يعني أني أوافق على هذه الصداقة...» قال مبارك: «ماذا؟ أنت لست موافقة على أن نكون أصدقاء؟» قالت سلمى بتردد: «لم أظهر لك ذلك بشكل واضح في مكالمتنا الأخيرة؟»

أجـاب مبارك: «إنك ترتكبين خطأً كبيراً برفضـك لتكوين صـداقة طيبة معـي... لم هـذا؟» بتعجـب قالت سلمى: «باعتقـادي أنني أرتكـب خطأً بتحدثي معك، فأنت شـاب تتصـل بي في منتصف الليل لتتحدث بأمور كالـ...كالمـوت مثلاً! ذلك ليس... إن ما أفعله خطأ فحسـب.» قال مبارك: «باعتقـادي أن ذلك ليس من معتقداتك، أن صـداقتنا التي لم تبدأ بعد... خاطئـة! أؤكـد لك أن مـا نفعله ليس خطـأ، إن المجتمع نفســه هو الذي فرضـ عليـك هذا الرأي، وهو أن تبني صـداقة مع أحدهـم لإثم كبير...» أجابت سلمى: «لست أعلم... كل ما أعرفه هو أن ما نفعله خطأ.» فسألها: «هلاّ حاولت إخباري لماذا تجدين ما نفعله خطأ؟»

كان موقف سلمى، من رغبة مبارك في إقامة صداقة بينهما، حاسما، لا يمكنها السـماح لنفسـها بأن تتحدث معه بعد الآن، إن كانت في مجتمع آخـر ينظـر إلى تحدثهـا مع الجنس الآخـر كأمر طبيعي، لمـا ترددت في الموافقـة، لكنهـا في مجتمع يرفض ذلـك، ولا يمكنها فعل ما يرفضــه، قالت: «ليس علينا أن نجد لكل تساؤل جواب... ذلك ما قلته، أليس كذلك؟» شـعر مبـارك أنها تتذكر ما قاله: «لكن هناك أمـوراً تحتاج إلى أجوبة... كحالتنا مثلاً.» إلا أنها هزمته حينما قالت: «وما هي حالتنا؟».

سـاد الصمت. مرت الثواني كدقائق طويلة. كان من الصعب على كليهما الإجابة عن ذلك السـؤال. «أشـكرك مبارك.» فاجأته حينما نطقت اسمه. كان ذلـك بمثابة موافقة على صـداقتهما، وتعجب من شـكرها له: «لقد كانـت نظرتـي للموت قبـل أن تطلـب مني أن أحـاول تحديد مـا يعنيه لي سـطحية جداً...» طلـب منها أن تكمل قائلاً: «نعـم؟» أكملت وقد بدت مرتاحة بطريقة جعلتها تندهش من نفسـها: «لقد مررت بتجربة معه... المـوت، ليس أنا بالطبع... وإلا لما كنت هنا اليوم أتحدث معك!» ضـحك بشـكل خافت، فقالت وقد أدركت أخيرا، خلال إنصـاته لها، أنه إنسـان نبيل، فهناك الكثير من الأشخاص لا يكفون عن الحديث عن أنفسهم.

«تجربتـي كانـت تخص شخصـاً أردت أن أكون قريبة منـه، لكن الأوان

قد فات، كنت أرى أن الموت مجرد موت الشخص، ثم دفنه، ثم نسيانه، ولكن ليس بعد الآن...»؟ قال مبارك كأنه يهمس: «والآن...كيف أصبحت تنظرين إليه...» أكملت سلمى: «لا يمكننا أن نجزم بأن نظرتنا للأمر هي الأمر نفسه، في الحقيقة بالطبع...وباعتقادي أن الموت من الناحية الدينية مفهوم جداً، ولكن نحن الذين ما زلنا على قيد الحياة، ما نراه خارجياً عن الموت وما نشعر به حسيّاً في داخلنا، لا يتوافق كثيراً مع...»
صمتت سلمى لبرهة و ما زال مبارك مصغياً ينتظرها.
قالت: «أشعر أني تافهة، من أنا كي أتحدث عن الموت... لا... إن ما أقوله غبي!» سألها: «كيف لك أن تقولي ذلك عن نفسك، إن ما تقولينه غاية في الروعة... سلمى!» كان معجباً بما كانت تقول وأحس بأن شعورها ينبع من تجربة حقيقية. «أخبرني أنت عن تجربتك مع الموت... أريد حقاً سماعها.» قال مبارك: «لا! أخبريني أنت عن تجربتك مع موت ذلك الشخص العزيز على قلبك.» صمتت سلمى مسترجعة بسرعة ضوء البرق أحداث الأمس واليوم وقد أحزنها ذلك، فأدرك مبارك، من خلال صمتها، أنها تشعر بعدم الراحة. قال: «ليس عليك أن تقولي لي من هو...» فأسرعت مصححة له: «لا لا.. الأمر ليس هكذا، لكن فقداني لذلك الشخص حديث جداً، لذا...» شعر مبارك أنه لا يجب أن يقول أيّ عبارة غبية، من عبارات المواساة التي يرددها الجميع دون أن يقصدوها. أحست سلمى بأنه يشعر معها، وذلك جعل الحديث معه عن الأمر أكثر وضوحاً. «لقد بقي هذا الأمر سراً عن الناس.. وهو أن هذا الشخص لم يمت ميتة طبيعية، بل إنه قتل نفسه.. لا تبدأ بلومه...» قال مبارك وصوته يرتجف: «لا أبداً، لم أكن أفكر في ذلك مطلقاً.» أكملت سلمى: «كان في سن صغيرة...هل تفهم ما أعنيه؟»
كان من الغريب بالنسبة لسلمى أن يسألها مبارك عن الموت، في وقت عصيب كهذا، حيث إن كليهما مر بتجربة تلامس مع الموت. تأثير موت عزيز علينا أبدي، يترك لطمته المؤذية على أرواحنا، حتى يأتي الموت

بعينه، أخيراً، ويسلبنا تلك الأرواح المشوّهة، التي تكفل هو بتشويهها. كانت سلمى طوال ذلك اليوم تحاول إيجاد مفهومها الخاص بالموت. كان من السخيف أن تستمع لكلام ذلك الرجل، ولم تعتقد أبداً أنها قد تفكر حقاً بما طلبه منها، لكن الأجواء التي عاشتها بالأمس واليوم فرضت عليها التفكير بالموت بطريقة حسّاسة جداً، إضافة إلى أن التحدث مع مبارك سهل عليها الأمر. إن من المؤثر أن تحكي له عن أخيها، وعن موته غير الطبيعي، وكم كان ممتناً لها، لأنها تحدثت بروح غير خائفة، فقد بدت بلا قيود وهي تتحدث.

كانت سلمى مستلقية على السرير، تحاول السيطرة على نفسها. بعد أن انتهت من حكاية قصتها مع الموت، ولكي تبعد عنها شبح البكاء قالت: «احك لي عن تجربتك.» تنهد مبارك: «كنت هناك بينما كانت تستنجد بأحد ما كي ينقذها، لم أفعل أيّ شيء، سوى البكاء كغبي، والتمرغ في دمها الطاهر. كنت في الثالثة من العمر، على ما أعتقد وإلا ما كنت لأسامح نفسي ما حييت.»

أخذ مبارك يروي الحادثة التي وقعت أمه ضحية لها، فدفع سلمى للبكاء ويكى هو الآخر. «هل يعقل أنك تتذكر ذلك المشهد حتى اليوم؟» أجاب بتردد: «إنه في ذاكرتي...ولكن مشوه نوعاً ما.» صمت لبرهة، ثم سألها، بعد أن سمع صوتاً غريباً صادراً من جهتها: «سلمى، ما هذا الصوت؟» فأجابت بحرج: «إنه بطني!» ضحك كلاهما. قال مبارك: «عليك ألا تأكلي شيئاً في هذا الوقت المتأخر من الليل. الطعام في هذا الوقت يتخزن في الجسم على شكل دهون ولا أظنك في حاجة إلى ذلك!» ضحك مبارك لوحده هذه المرة، فقالت له بنبرة تحد: «ما الذي تعنيه؟ إننا نحن الفتيات سمينات!» دخل كلاهما في جدال مرح، وقبل أن تغلق السماعة، قال مبارك بسرعة: «انتظري!» قالت: «ماذا هناك؟» فقال: «أريد أن أوجه لك سؤالاً آخر وأريد أن أسمع إجابتك في ليلة غد...» قالت سلمى مترددة: «دعنا لا نتحدث حتى يمضي الأسبوع المقبل على الأقل...»

فسأل باهتمام: «لماذا؟» أجابت: «لا أعرف.. أشعر أن إخواني سيشكون بأمري، ليس لأنني أقوم بشيء خاطئ، لكنه خاطئ في نظرهم.» قال مبارك: «يسعدني أنك لا ترين أننا نقوم بشيء خاطئ، كل ما أتمناه أن أجدك على الخط الآخر من الهاتف حينما أتصل في المرة القادمة.»

قالت سلمى: «ما هو السؤال؟».

50

كانـت «فاتن» قد أغلقـت هـاتفها النقال، ورمته في حقيبة يدهـا، بعد أن خرجت مع «ســامر» لمشاهدة أحد الأفلام في السينما. في رأيها، لم تكن تلـك خيانة لزوجها، فالرجـل الذي خرجت معه، ابـن خـالها الذي ينظر إليهـا كأخـت كما قال، كانت فاتـن منجذبة إليه، بعـد أن عاد في حال أخرى، أصبح من الرائع التحدث إليه، وصحبته لا تُمل، كانا يجلسان في إحدى صـالات السينما، منشغلين ببعضهما، لدرجة أن المحيطين بهما، طلبوا أن يصمتا أو يستأجرا الفيلم ويشاهدانه بعيداً.

«أنا سعيدة لأنك هنا سامر.» أجاب وهو ينظر إليها بعينيه الخضراوين: «وأنــا كذلـك.» انســابت أصــابعها الناعمة علـى يده، وقـامـت بمعانقة أصــابعه الضــخمة. كم أرادت فاتن لـو أنها غير متزوجة، لـو أن الأمور مختلفة. مالت نحوه وهمسـت في أذنه: «ســامر؟» أجابها مقرباً شـفتيه من أذنها المكشـوفة: «نعم فاتن؟» شـعرت برعشـة تجري في جسـدهـا، حينما اسـتجمعت قوتها، راغبة في قول شيء، فقاطعها سامر: «أعلم ما تريدين قوله.»».

التغـيّر الـذي طـرأ على ســامر جعـل نظرتها لــه تتغـير، والآن، ربما، لا تكون معجبة به فحسـب، بل تحبه. كم أخافها ذلك الشعور، خاصة وأنه أخبرهـــا، بعد وقت من توقف اتصـاله بها، أنه فقد حبه لـها، وأنه لم يعد يفكر بها كامرأة، وأنه تقدم الآن في حياته. «كُنت دائماً تسـألينني هذا السـؤال! هـل وجدت فتاة تتزوجها يا سـمور!» ضـحك كلاهما ضـحكة خافتة. واسـتمرا في حديث لم ترغب فاتن أن يستمر، فقد صدمها عندما

تحدث على ذلك النحو، بما يوحي بأنه ربما وجد الفتاة التي سيتزوجها. كم تمنت، في تلك اللحظات، لو أنها لم تتفوه بتلك الترهات، حينما كان يلاحقها محاولاً إقناعها الزواج به، وكم أرادت لو أنها وافقت على عرضه الذي كرره أكثر من ألف مرة. «في الواقع لدي مفاجأة لك!» قال سامر، وقد فقدت فاتن قدرتها على الاستيعاب. طلب مشاهدو الفيلم مرة أخرى من سامر أن يصمت.

بعد انتهاء الفيلم، خرجا من دار السينما، ذهبا لمطعم يبقى مفتوحاً طوال اليوم، بعد جلوسهما بفترة قصيرة، توجهت فتاة، تقفز فرحاً، نحو طاولتهما، والابتسامة تعلو وجهها، ما إن رآها سامر، حتى قام لاستقبالها بعناق حار. ظنت «فاتن»، التي نظرت إليهما مذهولة، أنه عناق لن ينتهي، وزاد ذهولها، عندما رأته يضع ثلاث قبلات على خدها الذي تغطيه مساحيق التجميل البراقة. بدت ملابس الفتاة فاضحة، وفكرت فاتن أن أي فتاة أخرى لو ارتدت نفس الملابس؛ لن تبدو عليها فاضحة كما هي الآن. القطعة العلوية لم يكن لها داع بتاتاً فهي شفافة وضيقة، تضغط على الجزء العلوي من جسدها، لدرجة أن حمالة الصدر الحمراء، كانت واضحة جداً. بطنها تزينه عضلات مشدودة تتوسطه سرتها الغائرة. أما قطعة الملابس السفلية فهي مجرد تنورة جينز قصيرة جداً، لها ثنيات تبرز سيقانها الطويلة، والحذاء الأنيق المصنوع من جلد أسود، كانت فاتن تنظر مأخوذة به، بينما تتقدم الفتاة إلى جانب سامر الذي كان يمسك بيدها والحماس واضح على ملامحه.

ارتفعت فاتن أخيراً بنظرها نحوهما، وهي تمسح على شعرها، وقد شعرت بأنه في حالة مزرية، مقارنة بالفتاة الجميلة التي كانت تسير بجوار سامر، أقرب إليه من ظله. كان شعرها بلون الشوكولاتة، تتخلله خصلات نحاسية، متموج بطريقة جذابة. هتفت الفتاة: «مرحبا!» ارتسمت على شفتي فاتن ابتسامة مصطنعة. «فاتن هذه صديقتي كارن، كارن هذه فاتن...» لم تنتظر «كارن» وانقضّت على «فاتن»،

وضمتها بقوة، وهزتها هزتين، جعلت فاتن تشعر بالغثيان. جلس سامر وأجلس «كارن» بعفوية في حضنه، وأحاطها بذراعية وقال مخاطباً فاتن: «إنها المفاجأة!» قالت فاتن: «نعم، إنها حقاً مفاجأة.» صدق ظنها، لقد وجد فتاة بالفعل. كان سامر مختلفاً مع «كارن» من حيث التصرف والكلام، فقد سألها مازجاً اللغة الإنجليزية بكلماته: «مظهرك رائع اليوم girlfreind.» كانت فاتن متعجبة، فسامر بعد أن رفضته ألف مرة، فقد اهتمامه بها ووجد له امرأة أخرى تملأ حياته، وقد تكون زوجته مستقبلاً. كان من الصعب جداً عليها ألاّ تشعر بالخسارة، فقد أدركت أنها خسرته للأبد، وكان من الصعب أن ترى تلك المرأة، التي بدت كساقطة رخيصة، تتمرغ في حضنه، كأن الحب الذي تحمله فاتن في قلبها، الآن، تجاهه، يشبه حبه لها سابقاً.

مد «سامر» يده نحو شعر «كارن»، وأخذ يفرك فروته بلطف، بينما كانت منحنية نحو أذنه تقول له شيئاً، لم تتمكن فاتن من سماعه لكن من نظرتها لوجه سامر، خمنت أن الكلام كان جيداً كفاية كي يدفعه للضحك. شعرت «فاتن» بنفسها سخيفة، لوجودها، الذي بدا غير لازم، إضافة إلى أنها أحست أن مشاعرها قد جرحت. أحست بأن تلك الفتاة «كارن»، تتطاول على غرض يخصها. كانت تبكي من الداخل، بطريقة جعلتها تفهم قوة حبها لابن خالتها. «I ll be waiting for you my love. قال سامر لكارن التي كانت على وشك المغادرة.

بينما كانت «كارن» تبتعد، وقف سامر ينظر إليها كأنه عاشق، ثم استدار إلى «فاتن» وقال: «هلاّ انتظرت لحظة...» ركض نحو «كارن» بخفة، بينما كانت تلتفت إليه بعد أن لاحظت أنه تبعها راكضاً. طوق ذراعيه حولها. «كنت رائعة كارن!» ضحكا معاً. قال سامر: «حتى إن اسم «كارن» هذا كان يليق بك، أشكرك كثيراً على خدمتك...أعطيني يدك كي أعطيك المال.».

51

عنـد بـاب شـقتها، وقفت فـاتـن. نظرت إليـه وهـي تحـاول إخفـاء مـا في داخلهـا، قـائلة: «حسـنـاً سامر، تصبح على خير.» كانت على وشك إغلاق البـاب، فقـال، وهـو يصـد البـاب بيـده: «مـاذا! هذا كل شـيء...ألن تدعني للداخـل؟» قـالت فـاتن وقد ظهر الآن غضـبهـا: «مـاذا سـامر، ألسـت على موعد غرامي مع تلك السـاقطة؟!» كانت تقـول بتهكم وهـي تغلق البـاب: «لا أريد تـأخيرك عن your love.» اقترب ممسـكاً بذراعهـا، وقد لاحظ أنهـا كانت على وشـك البكاء، قـائلاً: «أنـت my love فـاتن...أنت!» في تلك اللحظة، كانت المشـاعر مجردة من أيّ غطـاء، كلاهمـا أدرك للتو أنه لا داعي لتزييف أحـاسيسـهمـا. قضـيـاً وقتـا طويلا في شقة فـاتن. صـارح كل منهمـا الآخـر بمـا في داخله. كان ذلـك مريحـا، يجعل المـرء مدركاً للمكان الذي هو فيه وموقفه من الآخر. تحدثـا مطولاً، سـاعـات وسـاعـات، بدت كمـا لو أنهـا مرت كنسـمـة لطيفة. تذكـرت فـاتن في غمرة حديثهمـا، زواجهـا العرفي. كـان من المستحيل بـالنسبة لهـا أن تكذب على سـامر.

«أردت أن أخـبرك بـأمـر مـهم...» صـمتت فـاتن، ثم عـادت لتقول: «أشـعر أن مـا سـأقوله قد يفـرق بيننـا.» ابتعدت عنـه، فنظر إليـهـا، وهـو يسـأل: «يفـرق بيننـا.. مـا الذي تقولينه؟ إني على بعد درجـة واحدة فقط من أن أكون زوجك أخيراً... وأنت تقولين أننـا سنفترق؟ فـاتن...مـا الذي يحدث؟» اقـترب منهـا وهـي تبكي، فوقفت قـائلة: «أنـا لا أسـتحقك.» فسـألهـا: «إن كـان هنـاك من لا يستحق الآخر فهو أنـا... حبيبتـي فـاتن، تحدثي؟».

كـان مـن الغبـاء أن تفكر بـالاعتراف لـه بسرهـا، في الليلة التي صـارح

أحدهما الآخر بمشاعره. شعرت فاتن أنها لا تستحقه بالفعل. «أخشى فقدانك؟» وقف سامر أمامها قائلاً بصوته المطمئن: «ذلك لن يحدث، أعدك أن لا شيء قد يفرق بيننا سوى الموت... تحدثي فاتن وأخبريني ما الذي تخفينه عني؟» توجهت «فاتن» نحو الباب وهي تقول: «من الأفضل أن تخرج من الشقة الآن... ومن حياتي...» فلحق سامر بها ومنعها من فتح الباب، فقالت: «ما النفع من أن أخبرك؟ فأنت لن ترحل فقط...بل سترحل ورأيك فيّ قد اختلف.» أكملت: «سامر أرجوك.. لا تحرجني...» ضغط سامر بأصابعه على شفتيها الممتلئتين المبللتين وقال بعد أن حاز انتباهها: «ما هو أسوأ ما يمكنك فعله...» نظر إليها بثقة قائلاً: «هل قتلت أحداً؟ هل سرقت الملايين من أحد البنوك؟ ماذا!»

أنزل يده نحو عنقها وطوقه، وهو يحس بحرارتها وبريقها الذي تبلعه: «حبيبتي فاتن، دعيني أخبرك إن أسوأ ما يمكنك فعله، هو إنهاء علاقتنا التي لم تبدأ بعد، ما أنت على وشك فعله...وهو إخراجي من حياتك بالقوة، لجريمة كبيرة بحق كلينا، فلا تكوني ظالمة.»

تناولت فاتن يده من حول رقبتها، وقبلتها، ثم نظرت إليه، وقالت أخيراً: «إني متزوجة عرفياً منذ شهور.» كانت الأضواء الخافتة المعلقة على طرفي الباب تنعكس على الدموع التي تغطي وجنتيها.

«أنتظر منك...خبر انفصالك عنه، وحينها سأكون آخر رجل يقبّل شفتيك.»

نظر في عينيها بثبات ثم انصرف.

52

تسير حافلة مدرسية صفراء اللون، لتوصل الطالبات إلى منازلهن، تحت حرارة الشمس المضنية، في الشوارع المتقاطعة، الخالية من نسمة هواء باردة. ضوضاء مستمرة في أرجاء الحافلة، ثرثرة لا تنتهي، وأحاديث لا تتوقف، أعين تراقب المراوح الصامتة مكسرة الأجنحة، تأمل في رؤيتها تدور. تجد الفوارق الطبقية جلية في تلك الحافلة. في كراسي المقدمة، تجلس الفتيات المجتهدات والمسالمات، اللاتي يسعين للحصول على أعلى الدرجات، والوصول إلى منازلهن أولاً. في منتصف الحافلة، تجد الفتيات ذوات الدرجات المتوسطة، اللاتي لا يعرفن، على وجه الدقة، ما يردن، وما يستطعن فعله، وما يقدرن أن يصلن إليه إن اجتهدن، أما في مؤخرة الحافلة، الصلات أعمق وأقوى، والحوارات تتسم بالصراحة، فهناك الفتيات المهملات، اللواتي يعشن المراحل الدراسية لأقصى درجة، فهن الأكثر شعبية إلا أن درجاتهن على حافة السقوط.

في الكراسي التي تتوسط الحافلة، تجد كلمات بذيئة أحياناً، فيها تناقش بفوضوية الفوارق بين القبائل العديدة، وجيدة أحياناً أخرى، فتجد أقوالاً قيمة لنوابغ وعلماء، وربما أرقام هواتف متنقلة، تطلب بيأس التواصل مع صاحبها. على أحد هذه الكراسي تجلس «سلمى»، التي على الرغم من سوء الطقس، وحرارة الشمس، والهواء اللافح الساخن، تكاد قدماها لا تلمس الأرض من شدة الفرح، فترقبها لما سيحدث قريبا أو ربما اليوم، في عائلتها واضح عليها، وضوح لهيب الشمس التي تهلك الفتيات في الحافلة.

سـألتها صديقتها فاطمة: «ماذا هناك سلمى! لم كل هذا السرور..أدعو الله أن يديمه لك... ولكن عليّ أن أعرف سببه؟» قالت سلمى وهي تنظر لصديقتها: «أنت تعرفين! أختي شما ستنجب طفلها الأول في أيّ وقت من هذا الأسبوع!» تنهدت فاطمة وقد خيّب الخبر ظنها. «نعم، فهمت.» ثم أردفت قائلة باهتمام: «لكن عليك ألا تتلهي بالطفل، فهذه فترة امتحانات، عليك أن تركزي!» كانت فاطمة محقة، وعلى أية حال، فسلمى لن تحظى برؤية الطفل إلا بعد انتهاء الامتحانات. كانت سلمى متحمسةً لهذا الأمر، ولا تقوى على الانتظار حتى ذلك الحين.

«ادرسي جيداً...إلى اللقاء سلمى.» وصلت فاطمة أخيراً إلى منزلها.

لم تكن سلمى ترغب في الوصول إلى منزلها، الذي أصبح هادئا وفارغا بطريقة موحشة. وجود والدتها وعدم وجوده واحد، فقد غدت كالميتة لا تتحدث، لا تزور أقاربها كما كانت تفعل، وتمضي الوقت وحيدة، لا تأكل غير لقمتين وتنصرف إلى غرفتها أو لأيّ شاغل آخر. كان الوضع حزيناً في المنزل، يبعث على الاكتئاب والتحطم. والدها عاد لغرفته الصغيرة، ونادراً ما يخرج منها، ولم تعد ترى أخويها في المنزل، أحدهما عند أصدقائه والآخر في الأسواق التجارية. لم يكن من أمر إيجابي في هذه الفوضى، غير أن أخويها توقفا عن انتقادها، ومراقبتهما المتواصلة لها. شعرت سلمى أخيراً براحة نوعاً ما من هذه الجهة، إلا أنها ما زالت حزينة لوضع أخيها راشد، الذي رأت رسومه الجميلة، إلا أنه يتخلى عن موهبته، ولا يقبل فكرة وضع ما رسم في أحد المعارض.

اشتاقت سلمى للحركة والصراخ والضحك والحيوية، لا يعلم أحد أنها أصبحت تعاني لتفتح كتابا، لتعد لأحد الامتحانات، وتنتظر الليل، لتترك صوت مبارك يغزو خصوصية غرفتها، كان من السهل عليها أن تسترسل في الحديث معه، عن شتى الأمور الخاصة وغير الخاصة، دون ذكر أسماء أو ما شابه، لم تصدق أنها الآن ترى بأنه لا خطأ فيما تفعل، كان خير صديق في أوقات شعرت بالاكتئاب والتحطم فيها، ربما كان

هذا خيارها، أن تكون علاقتها بمبارك أفضل من علاقتها بأي صديقة من صديقاتها، لكن دوره في هذه الصداقة كان حاسما، فقد كان مهذبا وصريحا، صوتا احتاجت لوجوده دائماً.

وصلت إلى منزلها، وما إن تخطت عتبة المنزل، حتى رن الهاتف، فأسرعت إليه، ورفعت السماعة: «آلو... « فقالت خالتها نورة: «مرحبا سلمى، أختك شما أنجبت طفلاً...وهما على أحسن حال!»

53

تتطور مشاعرنا تجاه الأشياء حولنا، والأهم تجاه الأشخاص المحيطين بنا. في بداية الأمر، لا يكون لدى الإنسان أيّ إحساس تجاه شخص ما في محيطه، مع الوقت نبدأ بخلق ذلك الشعور، أو ربما الشخص الآخر نفسه يبدأ بالتكون في ذلك الشعور بداخلنا. إنها عملية تكوّن بطيئة في أحيان، وسريعة في أحيان أخرى، وبالنسبة لسلمى أخذ الأمر أياماً انقطع فيها مبارك عن الاتصال بها، لتدرك أنها لا تنظر إليه كصديق، بل أكثر من ذلك. في بداية الأمر كانت تنتظر منه أن يقول لها بأنه لن يتصل ليلة غد أو حتى ليلة بعد غد، كانت تنتظر منه أن يستسلم ويكف عن محاولة الحصول عليها كصديقة، لكنه لم يستسلم، ومنذ الاتصال الثاني بالضبط، بدأ الانسجام بينهما، كانا يتحدثان لساعات، كما لو أنهما يعرفان بعضهما منذ وقت طويل، اندهشت سلمى، في بداية الأمر، من أنها تشعر براحة كبيرة معه، لدرجة أنها، وبعد استمرار صداقتهما، فارقها الخوف من أن يكتشف أحد أخويها أنها تتحدث مع شاب، كانت أحاديثهما ممتعة، تتسم بصراحة، كشفت عن كثير من صفات كليهما، وكذلك عن أمور خاصة، فقد أخبرها مبارك كل شيء عن علاقته بطفلة، وعن حبه لها.

مرت فترة طويلة، حتى بدأت سلمى تشعر بأنها لا تستلطف مبارك فحسب، بل من الممكن أن تكون قد بدأت تحبه، لم يكن هذا الشعور تجاه شخص بل تجاه صوت، فلم يتبادلا، طول تلك الفترة، أي معلومات عن هويتهما، ورغم أنها متعلقة بوهم، إلا أن الحب سيعصر قلبها ألماً إن

استطاعت أن تصارح مبارك بما في خاطرها. كان صريحا معها، منذ البداية، بخصوص نوع العلاقة بينهما، الأمر الذي جعلها تدرك أن ما بدأت تشعر به تجاهه خطأ كبير. لا يجب عليها أن تشعر تجاهه بهذه المشاعر، لأنه أخبرها منذ البداية أنهما صديقان. هذا أمر لا علاقة لها به، فهذه مشاعر تتحكم بنا، ولا نتحكم بها، بالرغم من ضآلة تلك الأحاسيس فإن لها تأثيراً يفوق حجمنا، لدرجة أننا أحياناً نشعر بأننا سننفجر لشدة تأثير الإحساس اللطيف ذلك علينا، نصل إلى تلك الحالة، حينما نجد الإنسان الذي نرى، هو الشخص الذي يجب أن نكون معه حتى تتوقف قلوبنا عن الخفقان، وحتى تفرغ رئتانا من الهواء، وحتى يتوقف الدم عن الركض في عروقنا وأوردتنا، نريد أن نخبر الشخص الآخر بأننا نحبه ربما أكثر من حبنا لأنفسنا، ومن ثم نخبر العالم بأكمله، لا نريد أن يكون هذا الإحساس لنا نحن فقط، بل نريد توزيعه على الجميع، نريد أن يشعروا بالمثل.

من الغباء أن تخبره بأنها تميل إليه، فهو دائماً يخبرها عن خطيبته، وكانت نظرته لسلمى لا تتعدى حدود الصداقة، إضافة إلى كونه مجرد صوت في غرفتها، وبالتالي في حياتها، وحبها لشخص ذلك الصوت يعني أنه حب خال من أيّة شوائب، لا يعني ذلك أنه من الجائز أن تخبره بأنها تعشقه، فهي تحب دقته في وصف الأحداث اليومية التي يمر بها، تضحكها قدرته على أن يكون غبياً أحياناً، يبكيها حينما يتحدث عن انهياره واكتئابه، كان نصوحاً يعطيها النصيحة الصواب، ينقذها من ظنونها الخاطئة حول أمور معينة، ويشعرها بأنها إنسان له قيمة كبيرة، لطالما كان يستمع إليها تتحدث عن ذا وذاك، وقدرته على الاستماع كبيرة. إن كانت سلمى لن تخبره بما في داخلها، هل عليها إذا إبقاء ذلك لنفسها والاستمرار في صداقتها معه؟ تحملت بما فيه الكفاية، وإبقاء هذا لنفسها قد يدمرها، وربما مصارحتها له بمشاعرها قد يسحقها، لكن على الأقل عليها أن تفعل هذا لتريح نفسها من كلمة

تتكون من حرفين بغيضـين «لو؟». تنوي سلمى قريباً أن تطلعه على ما في خاطرهـا، دون أن تفكـر فيما سـيحدث بعد ذلك. كل مـا كانت تفكر فيه، أنه بعد تلك الخطوة، وبعد رفضـه الأكيد لمشـاعرها، سـوف تنتهي الصـداقة الجميلـة، وسيمضـي كل واحد منهما، لقد كانت سـلمى ترغب بشـدة لـو أن هذه المشـاعر لم تغز قلبهـا يوماً، فمن المـؤلم أن تُحِب ولا تُحَب.

54

كانت في الأيام الأخيرة من حملها، عندما عرفت «شما» أن هناك امرأة أخرى في حياة زوجها، كانت قد استيقظت في أحد الأيام، وبينما كان سالم يستحم في حمام إحدى الغرف التي لا يستخدمها أحد، رن هاتفه الذي نسيه في غرفة النوم. لم يكن ذلك الهاتف الوحيد الذي يملكه، لذا لم يهتم، وحينما استمر الرنين، نقل الفراغ صدى الصوت إلى سالم من غرفة النوم–التي تقع في بداية رواق الطابق العلوي– إلى مكتبه في نفس الطابق، لم يهتم فقد كان مشغولاً، لكن شما لم تكن مشغولة، فبينما كانت تتجه نحو الهاتف، اعتقدت أنه اتصال من أحد أصدقائه، حينما أمسكت الهاتف رأت اسم امرأة باللغة الإنجليزية: «Faten».

قالت شما لنفسها متسائلة: «فاتن؟ من هذه فاتن...؟ هل أجيب...؟ لماذا اسمها مسجل في هاتف سالم؟» قالت بعد برهة: «لم لا؟ علي أن أعرف من هي وماذا تريد» وما إن فتحت الخط، حتى جاء صوت نسائي: «أرجوك سالم.. لا تقل أيّ شيء، اسكت... ودعني أتحدث.» تمالكت شما نفسها، وهي تنصت إلى المرأة على الطرف الثاني من الخط تتنهد بعمق وتكمل: «أعلم أننا لم نتحدث منذ وقت طويل وهذا جعلني أدرك أنه يجب علينا أن ننفصل...» بدأت شما تفهم الصورة ولو بشكل جزئي، ثم خاطبت نفسها، بينما كانت المرأة الأخرى صامتة كأنها تعاني لتتكلم: «إذاً، فاتن رقمها في هاتف سالم.. لا بد وأنها على علاقة معه، كي تقول بأن الانفصال لازم، أيتها القذرة.. سترى يا سالم سوف أقتلك!» تمالكت نفسها، ورأت أنه من الأفضل أن تحاول سماع المزيد، فربما تفهم الأمر

بطريقة أوضح. أكملت فاتن: «حبيبي سالم، آسفة...» أخذت شما تحدث نفسها: «حبيبي سالم! إن علاقتهما تغص بعبارات الحب. لا شك أنها سارقة رجال.. لا يمكنني أن أصمت أكثر!» كانت شما مشتعلة غيظاً: «يا إلهي!» وصل غضبها إلى أقصى درجاته عندما قالت «فاتن» بصوتها الرقيق: «تعال إلى شقتي، لنناقش أمر فسخ زواجنا.. أنتظرك.» ثم أغلقت السماعة بسرعة.

ما إن سمعت شما ذلك: «زواج! ماذا؟ إنه متزوج من امرأة غيري..» جلست على طرف السرير... وشعرت بحرارة جسدها ترتفع، كانت في قمة غضبها وغبائها ربما. أعادت الاتصال بفاتن التي أجابت على الفور: «أنا أنتظرك.. تعال...» صرخت شما وهي تتحدث، كان صوتها مخيفاً، كأنه ينبع من أعماقها الغائرة: «أيتها الحقيرة! تنتظرينه.. انتظريه للأبد فقدماه لن تدوسا شقتك القذرة بعد اليوم...» جاء سالم يركض ما إن سمع شما تصرخ، وهي تمسك هاتفه النقال، وحينما رأته يدخل الغرفة، حتى رمت، بكامل قوتها، الهاتف إلى الحائط. وكم شعرت بالحزن لأنه لم يصب جسده المنتفخ.

رغم هذه الكارثة التي حلت بشما، فقد استطاعت، بعد عدة أيام، أن تلد حياة جديدة، ويبدو أن الحياة تستمر طالما الهواء يحيط بنا، وتزهر مع كل ثانية، لكن شما تمنت لو أنها لم تنجب طفلها، لأنه سيكون رابطاً أبدياً بينها وبين سالم مهما جرى.

55

تجلس في غرفتهـا الواسـعة، على كنبة كلاسـيكية مـن المخمل المقلم، تزيـن الغرفة مجموعة من الوسـائد والتحف الأنيقة منها والعتيقة التي قامت «طفلة» بشرائهـا من أماكن متفرقة، فمنذ وقت بعيد وهي مولعة بالأشياء التي تُصنع يدوياً، كانت تمسك بصحن صغير مزخرف بأشكال هندسية، وعليه كأس يحمل الزخرفة نفسها، يحتوي على حليب ساخن، أحضرتـه الخادمة للتو. مشـت نحـو النافذة التي تمتـد بعرض الحائط، والتي تنسـدل عليها سـتائر من طراز شرقي قديم، مصنوعة من المخمل الماروني. نظرت إلى الخارج وجبهتها البيضـاء ملتصقة على الزجاج، ثم أعادت النظر إلى لوحات فنية أهداها مبارك إليها، واسترجعت لحظة أن طلـب منها أن تغمض عينيها، وعندمـا فتحتهما رأت تلك اللوحات. لقد أحبت ذلك منه وأحبت اللوحات، ألقت بنظرها على تحفة فضّـية، أسـفل إحدى اللوحات، شـكلها غريـب غير مفهوم، ترتبط بهـا ذكريات أخرى، رسـمت البسـمة على شـفتيها ثم الضـحكة التي جعلتها تهتز، فأصـدر الكأس صـوتاً حينمـا ضرب بلطف الصـحن الصـغير، فانتبهت إلى ما كانت تحمل في يدها.

كان الليـل قـد حل، وأمور كثيرة تشـغل بال «طفلة»، التـي تركت عقلها يسـبح في عـوالم بعيـدة. ابتعـدت عـن النوافـذ، وبينما تركـت أفكارها تقودها أينما تريد، رأت فتاة جميلة تقف في مواجهتها، فاتحة البشرة، حمراء الشـعر، ناعمة الملامح، نحيلة الجسـد. مشـت متجاهلةً صورتها التـي انطبعـت علـى المرايـا المزدوجة، وتوجهـت نحو سريرهـا، وهي

ترتشف القليل من الحليب، الذي وجدته بارداً، وضعته جانباً، وتسلقت سريرها الذي يتوسط الغرفة بقوائمه العالية، كان مصنوعاً من خشب داكن اللون ولامع، يبرز الشرشف بلونه الذهبي ويعانق القوائم، والأغطية ذات اللون القرمزي والبني المائل للاحمرار، تغطي السرير بأكمله، إضافة إلى الوسائد المغلّفة بالأقمشة الهنديّة تغطيها رسوم بالخيوط الذهبية لأزهار وأشكال كالفيلة. سحبت طفلة الغطاء الثقيل المطرز من حوافه بأزرار ملونة براقة، لتغطّي قدميها، لم يكن عليها أن تتقلب لتجد بقعة مريحةً، فالسرير مريح بالكامل، وبينما كانت تحاول استيعاب الراحة البدنية، رن هاتفها المتحرك، مدّت يدها إليه، وعادت إلى وضعها السابق، وقالت بمرح:

«إن اتصلت مجدداً سوف أخبر عليك والدي.».

ضحك مبارك: «حقاً؟» تنهدت طفلة ثم قالت: «الوقت متأخر مبارك، ألم تنم بعد؟» أجاب: «سأنام ولكن أردت الاطمئنان عليك...فلم تكوني على طبيعتك حينما كنا عندكم، هل أنت بخير؟» اختفت بسمتها. صمتت لبرهة، ثم قالت بعد أن تنهدت: «لا أعلم مبارك، بالفعل لا أشعر بأني على طبيعتي.. أخبرني كيف هو والدك؟ لقد لاحظت أنه كان يعطس عندما كنتما هنا.» قال مبارك: «إنه زكام خفيف لا أكثر، أعطيته أدويته، وأدخلته غرفته ليستريح في سريره وهو بخير، لا تقلقي.» قالت طفلة: «جيد، ثمّ... يبدو لي أنك تتحدث عنه كما لو أنه طفل صغير!» ضحك مبارك: «إنه كذلك بالفعل! صدقيني... يحب أن يلقى الاهتمام الذي يستحقه، على أية حال... متى ستنامين؟» قالت طفلة وهي تتثاءب: «الآن.» قال مبارك باهتمام: «حسناً، سأتحدث إليك غداً، نامي جيّ...» قاطعته وقد استقامت: «مبارك... أريد أن أتزوّجك!». صمت مبارك ثم ضحك وهو يقول: «إننا متزوجان حبيبتي.» قالت وقد أصبحت أكثر دقّة: «أعلم! أعلم! ولكن...» لم يكن هناك من داع كي تكمل طفلة كلامها. «الزفاف... وما إلى ذلك من أمور!» قال مبارك بحماس. أجابت طفلة:

«نعم!»
كانت رغبتها قوية في أن تبدأ حياتها مع مبارك أخيراً. كانت مكالمتهما هذه الأطول، تحدثا مجدداً عن تفاصيل الزفاف، والبلدان التي سيذهبان إليها في شهر العسل. أغلق مبارك الهاتف وهو يكاد يطير فرحاً، غداً سيقرّران متى سيقام الزفاف، وستبدأ حياة جديدة، كان سعيداً لدرجة أنه أراد مشاركة هذه السعادة شخصاً عزيزاً على قلبه.

xxx

«سلمى!» قال مبارك حينما ردت سلمى على الهاتف: «ماذا مبارك؟» شعرت سلمى بحماسه. «سيقام زفافي قريباً...أليس ذلك رائعاً؟» كانت غير قادرة على فهم ما قاله، إنها تعلم أنه سيتزوج عاجلاً أم آجلاً، ولكن كان من الصعب عليها أن تسمعه يقول ذلك، ويتوقع منها أن تتحمس هي الأخرى. سأل مبارك: «سلمى؟ آلو...» قالت بعد أن حاولت تمالك نفسها: «ماذا؟ ». شعرت بالأرض تتحرك تحتها. «نعم... نعم إن ذلك لرائع مبارك... رائع.» اعتدلت في جلستها وركزت ظهرها على مقدمة سريرها، وحاولت أن تفهم ما سمعت للتو. أنفاسها ثقيلة، أحست لبرهة أنها لا تقدر على التنفس بشكل جيد، وحرارة جسدها أخذت في الارتفاع، كان وضعها لا يحتمل، أرادت أن تخبره بما تشعر به تجاهه، أن تخبره فحسب بما يدور في داخلها، تعلم أن لا نفع في ذلك، لكنها أرادت بشدة فعل ذلك.

«أحبك.» كانت أنفاسها مكتومة حينما قالت الكلمة التي لم يسمعها جيدا. «سلمى؟ مـ...ما الذي تقولينه؟» نزفت الدموع وهي تقول مجدداً: «أحبك مبارك، أحبك...» لم يعلم مبارك ما عليه قوله، فقد اعتقد أنهما صديقان لا أكثر. كان حبها شيئاً لم يتوقّعه، ولم يعتقد أن تكون جريئة كفاية لتعترف بهذا الحب. «سلمى، لا أعرف... لا أعرف ما يجب أن أقوله؟» كانت تعرف أنه حينما ستعترف بحبها له، ستكون صداقتهما قد تحطمت، وسيكون من المستحيل أن يتحدثا مجدداً بعد الآن.

«آسف...» قال مبارك، وهنا أرادت سلمى بشدة إنهاء المكالمة. علام الأسف، لم يكن الخطأ بخطئه، هي التي وافقت منذ البداية أن تكون على علاقة أو صداقة مع رجل مرتبط بامرأة أخرى، كان من المفترض أن تنظر للأمور نظرة أعمق، فاحتمال تعلقها كان واردا، والألم الذي يعتصر قلبها الآن، نتيجة خيار أقدمت على اتخاذه، وهي وحدها من ستتحمل آثاره.

« انتظري سلمى، لا تغلقي السماعة...أرجوك! ».

كان يحاول إيجاد الكلام المناسب، لكنه يعلم أن لا جدوى من أيّ كلام.

«أريدك أن تجيبني على سؤال يدور في داخلي مبارك، وأريد الإجابة ليلة غد.» سألته وهي تعلم إجابته مسبقا، لكن حاجتها لسؤاله عميقة، وبما أن هذه المكالمة قد تكون الأخيرة، فقد أرادت ختاماً واضحاً لصداقتهما، ستحصل عليه ليلة غد:

«هل تحبني؟»

أغلق كلاهما السماعة وقد بدا لبرهة أن صداقتهما التي دامت تسعة أشهر، مدة وجود الجنين في رحم أمه، قد انتهت تماماً.

دخل سعيد غرفتها قلقاً عندما سمع صوت بكائها، بينما كان عائداً من المطبخ، وسألها: «ماذا بك؟» أجابت سلمى دون أن تلتفت إليه، فقد كانت تدفن وجهها في كفيها: «اشتقت لأختي شما.» نظر سعيد للهاتف الذي كان بجانبها، وأومأ برأسه ثم قال: «نعم، انظري سلمى... بعد الانتهاء من امتحاناتك سآخذك إليها فوراً... حسناً؟ أعدك...» غادر الغرفة، مغلقاً الباب.

كانت سلمى كما لو أنها فقدت شخصاً غالياً عليها للتو، كما لو أن صديقاً أحبته بصدق قد فارق حياتها، وهذا ما حدث بالفعل بعد أن أغلق كلاهما السماعة. انتهت صداقتها التي كان الأساس فيها السؤال الذي يطرحه مبارك في نهاية كل مكالمة، وفي معظم الأحيان كان سببا رئيساً في استمرار الصداقة، فتظل سلمى تبحث عن الإجابة لترويها له في المكالمة التالية، لكنها هي التي طرحت السؤال الأخير؛ سؤال يمكن

لمبارك أن يجيب عليه بعدم الإجابة، ولقد كانت تلك أوضح إجابة ستحصل عليها سلمى.

56

لا تحتاج شما إلى تدريب لاكتساب المهارات كي تصبح أماً، فلا أحد سيعلّمها كيف تحب طفلها، سوف تتصرف بفطرتها، وستجد نفسها تحب هذا الكائن الصغير الذي سيسبب لها العناء، وسيتركها متورمة العينين من قلة النوم، ومرهقة من طلباته التي لا تنتهي. كانت متشبثة به، وكم شعرت بالسوء تجاه نفسها، حينما تمنت لو أنه لا يوجد على الإطلاق. حينما فكرت على هذا النحو، كانت في موقف ضعف. عندما أخذت الطبيبة الطفل ليوضع في تلك الغرفة مع الأطفال الآخرين، كانت شما مستلقية على السرير، تشعر بآلام الولادة التي لا تقارن بالألم الكبير الذي يعصر قلبها. دخلت خالتها نورة بوجه مشرق قائلة: «لقد هاتفت أختك سلمى للتو، إنها سعيدة جداً وتتمنى أن تكوني على ما يرام.» ظلت شما صامتة شاردة الذهن. «شما... هل أنت بخير؟» طمأنت شما خالتها، وطلبت منها بأدب أن تتركها لوحدها لساعة كي تنام. بعد أن أصبحت وحدها في الغرفة، أدركت أنها لن تقوى على النوم هذه الأيام، فهناك قرار خطير تقلبه في فكرها، وإن كانت تعلم أنه لا شك سيحطم عائلتها.

«أريد الطلاق سالم.» قالت شما بجدية، بعد عدة أيام، بينما كانت تجلس في الصالة تنظر إلى زوجها. «كيف لك يا سالم أن تتزوج على شما؟ كيف فعلت ذلك؟» قالت نورة لابنها الذي كان مصدوماً، في بداية الأمر، لما قالته شما بطريقة جدّية بحضور والدته، ثم مصدوماً بشكل أكبر، لأن والدته علمت بشأن زواجه العرفي. «أمي أنت لا تفهمين الأمر!»

اكتفت والدته بالنظر إليه. قال «سالم» موجهاً كلامه إلى شما، وهو يظن أنها تطلب الطلاق لأن كبرياءها مجروح لا أكثر، بعد أن عرفت أنه تزوج عليها. «من تظنين نفسك أيتها المرأة! كي تتجرئي سؤالي طلاقك... هل تعتقدين أنك قادرة على العيش بعد أن أطلقك...» وجد سالم بقعة مريحة فاسترسل في كلامه: «شما؟ حبيبتي... أخبريني ما هي الشهادة التعليمية التي بحوزتك؟» صمت قليلاً لا بانتظار الجواب، وأردف بنبرة سخرية: «الابتدائية؟ نعم... الشهادة الابتدائية...» ثم تحولت نبرة صوته إلى تحطيم واقعي: «أيّ عمل ستحصلين عليه بهذه الشهادة، شما... ما رأيك في أن تفكري كالبشر بما ترغبين في قوله قبل أن تقوليه؟» كان عقاباً لها لأن فضولها كان أقوى منها، وانجرفت وراءه، كأيّ فتاة ترى الزواج في سحر الزفاف وفتنة المجوهرات، تلك الفكرة التي تُغرس في عقول الفتيات عن الزواج. عرفت شما الآن أن الزفاف لا شيء أمام ما يأتي بعده.

لم تكن شما قد أخبرت خالتها أن سالم كان وغداً معها منذ بداية زواجهما حتى آخر جملة قالها اليوم، لقد عرفت ذلك بنفسها عندما أذهلها بأسلوبه الفظ. نظرت نورة إلى شما نظرة تساؤل، عما إن كان هذا سالم ابنها بالفعل، أم هو رجل آخر، «إنه هكذا منذ عرفته، خالتي لا بد من أنك اعتقدت أنك ربيته.» صرخ سالم في وجه شما: «لقد ربتني أمي جيداً!» تدخلت نورة: «لا لم أربك جيداً... فالرجل الذي يصرخ في وجه زوجته، وفي حضور أمه، ليس برجل، إنها ليست بطريقة هذه التي تخاطب بها زوجتك...» سكن كل شيء في المنزل، وشعر سالم بأنه يتعرض للهجوم من المرأتين، وأراد أن يخرج فورا من المكان، كي لا يضطر لسماع أيّ شيء. نظرت والدته إليه، وأخذت تستعيد المشاعر المزعجة التي انتابتها، عندما علمت أن زوجها تزوج عليها، وكيف سكتت وستسكت، ولن تطرح أسئلة وستبقي كل ذلك في قلبها الضئيل القاتم.

توجهت نوره لولدها قائلة: «أخبرني؟ كيف... ولماذا فعلت ذلك بشما؟

ألم تفكر بها حينما كنت تعيش لحظاتك السعيدة تلك؟ ما... ما الذي يحدث كي تتزوج عليها امرأة أخرى؟ هل قصّرت في حقك؟ أخبرني... أخبرني...» كانت نورة تشعر بنفسها توجه هذه الأسئلة إلى زوجها، لكن ابنها، لسوء حظه، كان يستمع لأمّه والأسئلة تتساقط عليه بلا توقف ولا يجد إجابة. أرادت نورة الحصول على أجوبة، لا لأجل شما فحسب، بل لأجلها، عسى أن ترتاح روحها أخيرا؛ فمنذ أن علمت بشأن زوجها، وهي تكره نفسها لسكوتها، وأجوبة بسيطة من زوجها، أو حتى من ابنها، قد تبعث بالدفء إلى زوايا قلبها المحطم.

قال سالم محذراً: «إياك على ذكر الطلاق مجدداً! هل تسمعيني...» تمالكت شما نفسها قائلة بصلابة: «اسمعني أنت، لست أطلب الطلاق لأن كبريائي مجروح أو ما شابه، الحياة معك لا أريدها، والحياة كما تعرف ليست يوما أو يومان، إنها سنوات طويلة لا أقدر على قضائها معك. هل تعرف شيئاً سالم؟ لن أطلب منك أن تطلقني بعد الآن...» نظر إليها سالم بترقب ظناً أنها لن تزعجه بموضوع الطلاق بعد ذلك، لكنها قالت: «سأذهب غداً للمحكمة، وأحصل على ما أريد دون إرهاق، وأعود إلى أمي وأهلي مع ابني زايد...» قال سالم متلعثماً: «ما..ماذا؟»

اعتقدت نورة في بادئ الأمر، أن شما تطلب الطلاق لأنها غاضبة لا أكثر، لكنها اكتشفت أثناء ذلك الحوار، أن شما تريد الطلاق أكثر من أيّ شيء آخر، ولن يمضي هذا الأسبوع دون أن تكون آنسة من جديد. كانت مصرة على قرارها، بعد أن علمت أنها لو قضت شهراً واحدا مع سالم فإنها ستموت لا محالة. كان يوجه لها العبارات البذيئة دائماً، يشتمها كلما سنحت له الفرصة، يسخر منها كما لو أنها لا شيء. كانت هذه طريقة في التعبير عن غضبه المكتوم، والذهاب للمحكمة هو طريقة شما لتعبر عن غضبها الذي لن تسمح أن يكون مكتوماً. قال سالم: «إن كنت جادة...» قاطعته شما بإصرار يشع في عينيها بريقاً: «أنا جادة.» أكمل سالم قائلاً وهو يدخل دور الحكيم: «دعيني أخبرك أنك ستحطمين

عائلتك هكذا!» نظرت إليه بعينين براقتين بالأمل: «لا... دعني أخبرك أنا، إنك أنت يا رجل البيت... من حطم هذه العائلة، منذ أشهر خلت، بقراراتك الأنانية، على أيّة حال، هل نحن متزوجان منذ ثلاثين سنة؟ هل بيننا عشرة أبناء؟ أيّ عائلة تتحدث عنها يا هذا؟ ابنك ستراه دائماً، فأنت ابن عمي.»

أخذت النظرات بين الابن وأمه تنغرس في الجو الصامت. قالت شما، قبل أن تتوجه لغرفتها: «لا أحد يحبذ الطلاق، وتفتيت العوائل، لكن العيش معك مستحيل، صدقني مستحيل، فأنت ستظل غاضباً عليّ دائماً، لأسباب لا إرادة لي فيها، لن أموت وأبلغ السبعين من عمري وأنا أستمع لإهاناتك...سأترك لك المنزل هذا بأكمله، ولديك الحيطان اشتمها كما تريد.» بعد أن غادرت شما المكان، نظر سالم إلى والدته قائلاً: «تحدثي معها؟» لم تجبه والدته، وغادرت هي الأخرى، نحو غرفتها، وهي تفكر بأن شما أقدمت على فعل ما كانت ستقدم على فعله مع زوجها، لو كانت الأوضاع مختلفة معها.

57

كان سالم بعيداً عن فاتن، لفترة طويلة، لم يكن قادراً على الاتصال بها، لأنه قضى عند عائلته عدة شهور، وحينما عاد أخيراً إلى منزله، وكانت شما حاملاً حينها، شعر بنفسه متردداً حول إنهاء علاقته بفاتن، وإن كان عليه فعل ذلك، كي يضمن أن يكون في أمان من الشائعات التي قد تصل إلى والده وتحطم ما بناه مع أبيه طوال تلك الأشهر. في تلك الفترة اتصلت فاتن به كثيرا، لم يزد على تلك الاتصالات، كأنه لا يتفقد هوية المتصلين، وأخيراً، عندما أجاب على الهاتف،

لم يكن هو من رد، بل كانت شما التي انفجرت غاضبة. منذ ذلك اليوم، بدأ سالم يفكر بجدية في فعل شيء حيال الأمر، كان ينوي الذهاب لفاتن فوراً، وإنهاء الزواج، لكن اليوم الذي اكتشفت فيه شما علاقته بفاتن، كان اليوم الذي أنجبت فيه طفلها. انصرف سالم فوراً، أثناء ولادة شما، نحو زوجته فاتن، دون أن يشعر بكدر تجاه أن يكون مع زوجته الثانية بينما الأولى تنجب ابنه.

«فاتن؟» نظرت إلى سالم الذي ناداها باسمها، بعد وقت قصير، من لقاء ظهرا فيه كغريبين. في الماضي لم يكن ينطق اسمها بهذه الطريقة السخيفة، كان الأمر مختلفاً بطريقة لن ترجع مجدداً، «نعم سالم.» أجابته وهي تبتعد عنه، كانت تحاول استجماع قوتها لتقول ما في داخلها، «أريد فسخ هذا الزواج.» أراحها سالم، من حمل ثقيل، عندما نطق بتلك الكلمات. أحست بفرح، حاولت إخفاءه، واسترجعت في ذاكرتها ما حدث في تلك الأسابيع، وخوفها من فقدانها سامر. كانت

دمـوع الفرح تـكـاد تنهمر من عينيهـا، فـالتفتت بوجهها بعيـداً، لكي لا يرى سالم علامـات الفرح، وحـاولت أن تكون جدّية، وأن تغطى مـلامحهـا ببعض الحزن، وأن تستخدم تلك الدموع، لتوهمه بـأنها متـأثرة لفراقهمـا، التفتت إليه بذلك الوجه العابس، وتنهدت قـائلة: «هل تظن أن علينـا فسخ الـزواج؟» قـال ســالم بلا تردد وهـو يمـد يده لهـا: «نعم...فـاتن؟» أمسـكت بيده وجلست قريبه. قـال وهـو يمسح دموعها بيديه الثقيلتين: «بـاعتقـادي أن فسخنا للزواج سيكون في مصلحة كلينا...» أومأت برأسها: «حسنـاً... إنك محق.».

بعد عدة أيام انتهى زواجهما رسـمياً. توجهت فاتن نـحو شـقـتها لتلملم أغراضـهـا، وتطير جوّاً نحو بلدهـا، نحو ابن خـالهـا ســامر، أما ســالم فقد توجه لأحد المقاهـي لشرب القهوة، وتصفية بـاله من كل ما يشوبه، كـان يحس بأنه من المســتحيل أن يعيش مع شـمـا سـنوات قـادمة، كان يمنع نفســه من تخيل الوضــع الذي سـيكون فيه، فـهل سـيكره نفسـه حينهـا؟ تســاءل بخجـل بينه وبين نفسـه حـول مــا إن كـانت علاقته مــع والده تستحق كل هذا العنـاء.

59

لـو كان بيد سـلمى أن تلفـظ أنفاسـها الأخيرة في تلـك اللحظة وهي علـى سريرها المعـدني لما رفضـت أو ترددت، فقد كانـت تذوق طعم الـردى المر، وهـي تتقلب على سريرها اضـطرابا، وتنزف الدموع. لم يتصـل «مبـارك» كمـا كان يفعل كل ليلـة. فلا حاجة للاتصـال بعد الآن بصـديقة لم تعـد موجـودة، كان من الصـعب عليهـا تحمل الليل دون اتصـاله، لم تتوقـع أن تقع في حبه، ولم تعتقد أن صـداقتهما قد تنتهـي بهـذه الطريقة، ما حدث هو الصواب، فلو استمرت بالتحدث إليـه وهي تحبـه، عارفة بأنـه لن يكون لهـا، فقد يمزقهـا ذلك، كان مـن الجيـد أنهما أنهيا الصـداقة أخـيراً، وإن كان من الصـعب عليها كبت مشـاعرها والاسـتمرار في تحصـيل دروسـها، لتجتـاز امتحان الثانويـة العامـة، لكنها كانت تعلم جيداً أن ما تمر به الآن هو نتيجة الخيارات التي أقدمت على اتخاذها. صـعب عليها أن تنسـى ما تشعر بـه مـن آلام، ولـو كان في مقدورهـا نسـيان أوجاعهـا، لمـا ترددت بنسـيانها، كنسـيانها لأجـزاء من المـواد التي تدرسـها، لكنها أخفت أوجاعها وآلامها، ورسـمت بسـمة على وجهها.

في عصـر أحـد الأيـام، وبينمـا كانت تدرس أحـد الدروس، جالسـة في الصـالة تحاول التركيز، دخلت أختها شما مع ابنها زايد، تحمله خالتها نورة. قفزت نحو أختهـا، رامية بالكتاب المدرسي، تقبلها وتحتضنها كما لو أنها لم ترهـا منذ سـنين، ومـا إن رأت الطفل نـائما بين ذراعي الخالة، حتـى نزلت الدموع من عينيها، مسـحت تلك الدمـوع وأخذت الطفل إلى

غرفتها، ووضعته في وسط السرير، وأغلقت الباب عليه، وأعدت الشاي لشما وخالتها. من المعتاد أن تكون القهوة والشاي في الصالة، في حال مرور صديق أو ضيف، وهذه المرة أتى من لم تتوقع سلمى رؤيته إلا بعد شهر على الأقل.

«أين أمي؟» سألت شما. «في غرفتها كالعادة... دعيني أذهب لمناداتها.» كانت سلمى على وشك الوقوف، لتخبر والدتها، قالت شما: «لا لا... اجلسي قليلاً، أريد إخبارك أمراً ما دون وجود أمي.» جلست سلمى والقلق قد اعتراها: «ماذا؟» قالت شما: «لقد طلقت من سالم.» شهقت سلمى: «ماذا! شما... باعتقادي أنك أنجبت منذ عدة أيام؟ أم أنا مخطئة.» قالت الخالة نورة: «لم أوافقها على ذلك.» خرجت والدة سلمى من غرفتها بعد أن سمعت الضّجة، وحينما دخلت الصالة، أفرحها وجود ابنتها شما، وأختها نورة، وأدهشها ذلك. هرولت شما نحو والدتها التي كانت تطلب منها أن ترتاح، لكن شما انقضت عليها، وأخذت تحتضنها، وتقبل يديها ورأسها. لقد اشتاقت كثيراً لوالدتها، ولم تكن ترغب في أن تعلمها بأمر طلاقها، فهي لا تعلم ماذا ستكون ردة فعل والدتها إن علمت، وعلمت أن الجميع سيعرف عن هذا لاحقاً.

لا تقدر سلمى أن تصبر دقيقة أخرى كي تتحدث مع شما عن الأمر، فقد ظنت أن الأمور تحسنت مع زوجها. «شما، حبيبتي...ما رأيك أن تأتي معي للحظة.» قالت شما: «طبعاً.» وانصرفتا نحو غرفة راشد الذي لم يكن موجوداً في ذلك الوقت، وما إن أُغلق الباب حتى قالت سلمى بانفعال: «شما! أنا متفاجئة... سالم طلقك؟ لا أصدق هذا... هذه فوضى!» قالت شما محاولةً التخفيف من توتر أختها: «سلمى، هلاّ هدأت...» جلست شما على السرير ثم قالت: «سالم لم يطلقني.» تنهدت سلمى وقد شعرت بنوع من الراحة والخيانة في الوقت نفسه: «لم يطلقك؟! لماذا إذن قلت إذن... ما الذي تظنين نفسك فاعلة؟ تمزحين معي بأمر كهذا أم ماذا!» نظرت شما لأختها قائلة: « إنك لا تُصدّقين! كنت أعني أن

سالم لم يطلقني بملء إرادته، فقد جررته نحو المحكمة كي يفعل ذلك.»
قالت سلمى: «ولماذا تفعلين شيئاً غبياً كهذا؟ هل تظنين أن الأمر لعبة؟!
ثم أنت بنفسك قلت إنك لن تسمحي بأن يطلقك إن رغب في ذلك!» طلبت
شما من سلمى الجلوس ثم أخذت تشرح لها المسألة بأكملها، لكن سلمى
كانت مستاءة لما حدث: «إنك محظوظة لأن خالتي نورة ما زالت تقف
بجانبك» وافقت شما أختها الرأي في هذه النقطة، لكنها كانت متأكدة
من أن ما فعلته هو الصواب، ولا أحد كان يمكن أن يقنعها الرجوع عن
قرارها، كانت تشعر بالحياة تدب فيها من جديد.
عاد للمنزل بعض الحيوية، لكنها مشوية بأحزان متناثرة هنا وهنا.
كانت شما تريد أن تستعيد السنة الدراسية التي انزلقت منها، وتخطط
أن تدخل الجامعة، وطفلها لن يكون في عنايتها فقط، بل في عناية
أمها وخالتها نورة. حاولت سلمى أن تركز في دروسها استعدادا
لامتحاناتها التي سيتحدد عليها ما إن كانت ستتوجه نحو الجامعة أم
لا، لكنها لم تستطع منع نفسها من تتبع أخبار منزل عمها، فقد عرفت
أن سالم عاد بعد يومين، وصارح والده بوضعه، واعترف أمامه بأنه
كان غبيا عندما أخذ يُسيّر حياته وفقاً لما يريد والده؛ فقد كان عليه أن
يتخذ القرارات التي تقيم حياته وفقا لما يريد، لا وفقا لما يريد والده،
وقد أدرك الأب لأول مرة أن سالم أصبح ناضجا لأول مرة في حياته،
أصبح رجلا. لكن سلمى لم تعرف أن مبارك تزوج في آخر يوم من أيام
امتحانات الثانوية، لم تعرف أن الزفاف الذي ذهبت إليه خالتها مع
والدتها وبعض النساء هو زفاف الرجل الذي تحب. أحست سلمى بأن
تلك الأسابيع كانت طويلة، فقد بدا اليوم في نظرها كسنة، كانت تشعر
بشوق كبير لذلك الصوت؛ لنصائحه وإرشاده لها، تذكرت كثيراً ما كان
يقول: «لا يهم تشجيع أيّ أحد لك، الأمر يعتمد عليك أنت.»
لم تكن تعرف عنه غير الاسم وبعض الأمور البسيطة، وهو أيضا لم
يعرف عنها الكثير، غير أنها ما زالت تحبه، وكم كان ذلك متعباً، فقد

اعتقدت أن ذلك الإحســاس ســيخفت بمرور الوقت، لكنه لم يخفت، وبقي كما هو، ولقد أفزع سلمي شعورها الملازم تجاه ذلك الصوت الغائب.

60

حدث كل شـيء بسرعة، وفي وقت قصـير، تلاقت الصـدف، لتقود سلمى بعد أشـهر من امتحانـات الثانوية العامة، للاستعداد للزفـاف. بعد زواج «مبـارك»، توجـه «هـلال» إلى والدة «طفلـة»، يطلب منهـا أن تبحث له عـن عروس مناسـبة. كان هلال منفصـلاً عن العالم لسـنين، غارقاً في التكنولوجيـا والأدوات التقنيـة التـي يحرص علـى حيازتهـا، وكانت خطـوة كبـيرة نحو التغـير، أن يطلب عروسـا. تعـرف الخالة نـورة تلك العائلـة منذ وقـت طويل، وفي زفـاف مبارك التقـت بوالدة طفلة، تلاقيا عـدة مرات بعد ذلـك، وتحدثا مطولاً عـن أمور مختلفة، وبعد اتصـالات كثيرة، أخذتا في البحث عن عروس لهلال. لم تقو نورة على النطق بكلمة عن سـلمى، حتى عرضت والدة طفلة تزويج هلال بسلمى، وراقت الفكرة للخالة، وقع الاختيار فوراً على سـلمى، التي كان لها ولعائلتها سـمعة طيبة، وافقت سلمى بسرعة على الزواج لأسباب، من بينهـا الحصول على الاسـتقرار، والأهم نسيان ذلك الصوت الذي اشتاقت إليه، ولم تعد ترغب إلا في التخلص من ذلك الشوق.

كانـت تجهـل أن «هلال»، هـو شـقيق الرجـل الذي وافقت علـى أن تكوّن صـداقة معه، ووقعت في نهاية المطاف في حبه. إن أيّ ربط للمعلومـات في عقلهـا قـد يؤدي إلى تحطم قلبهـا، فهي تعرف مبـارك على أنه ذلك الشـخص الصوت، لا أكثر، ولو عرفت أنها ستتزوج شقيق الشخص الذي أحبت، فلن تقدر على لملمة أشلائها، لحسن الحظ، أنها لا تعلم.

في يوم الزفـاف كانت الأجمل على الإطلاق، في الفسـتان الأبيض الذي

يلف جسدهـا، بدت كملاك هبط من السمـاء، ملاك وحيد الجنـاح بـالطرحة التـي تنسـاب وراءهـا بخفة، والحناء مرسـوم بـأدق وأروع النقوش من ظفرهـا حتى كفهـا ونهـاية ذراعهـا، يزين صدرهـا عقد من الألمـاس. كـانت سـلمى أجمل عروس شـاهدتها الأعين، لكنها شـعرت بـالحـزن لمفارقة عـائلتهـا، وأكثر من حزنت عليـه كـان والدهـا، فقد قلقت عليه، فمن الذي سـيطعمه ومـن سـيؤنس وحدته، كـان ذكر اسـم أبيها أمـراً يجعل قلبها يعتصر حزنـاً.

خـلال شـهر العسـل، زارا عـدة بلـدان، وأدركـت سـلمى أن زوجها طيب ولطيف وصـريح، وإن لم يكن وسيمـا، فقد كـانت مـلامحه الطفولية تجعل المرء يحبه. «هل تعرفين أني كنت سميناً في المـاضي؟»

قـال هـلال بينمـا كـان يصـب لسـلمى عصـير برتقـال، في الأيـام الأخيرة، من شـهر العسـل، التي قضيـاهـا في جزر السيشـل. كـان اليوم مـا زال في أوّله. «لا، ولكنـي لا أسـتطيع تصـورك سمينـاً!» ضـحك هـلال وهو يقول: «لقد كنت مخيفاً. حدث كل هذا بسبب كثرة ملازمتي للحاسوب والشبكة العنكبوتية!» تنهد هـلال قـائلاً: «لكنـي رشيق الآن كمـا ترين...» أخذ يمدح في نفسه مـازحاً وأردف: «لكني تركت، الآن، مسـألة الجلوس أمـام شـاشة الحـاسـوب طـوال أيـام الأسـبوع.» نظرت سـلمى له قـائلـة: «ولكنـي أرى حـاسـوبك المحمول هذا معك دائمـاً؟» أجـاب: «نعـم ولكن فقط للحـاجة... فلدي أصـدقـاء أحب التواصـل معهم، وأمور أخرى كثيرة، ولكن الوضـع ليس كمـا كـان في السـابق...».

كـانت سـلمى تعلـم الكثير عن الحواسـيب إلا أنهـا لم تتعـامـل مـع أحدهـا يومـاً، إلا في أوقـات نـادرة. مد هـلال يده لهـا قـائـلاً: «نـاوليني يدك...» نـاولتــه يدهـا، فصـحبهـا هـلال نحو السريـر حيث الحـاسـوب المحمول: «ذكّريني بـأن أشتري لك حـاسوبـاً محمولاً حينمـا نعود إلى الوطن، فـأنت سـتحتـاجينه في سـنواتك الجـامعيـة...» نظرت إليه سـلمى وقد شـعرت بمسـاندته الكبيرة لهـا: «وهنـاك زوجة أخي، سوف تساعدك في التـأقلم...

ثم عليك بأن تتعرفي إليها، إنها شخصية مميزة...» أجلسها بجانبه، أحاطها بذراع، وأخذ يتعامل مع الحاسوب بأصابعه الأخرى وقال: «دعيني أريك...» وبينما كان يعلمها بضعة أشياء بسيطة، أراد أن يريها بريده الإلكتروني: «سلمى، أريد أن أقول لك أنه من النادر أن يسمح أيّ زوج.. أن تدخل زوجته بريده الإلكتروني! ولكن لا شيء عندي أخفيه عنك...» كان مصيباً نوعاً ما. فتح لها بعض الرسائل مشيراً إلى أسماء أصدقائه. نظرت سلمى إلى الشاشة بحاجبين مقطبين قائلة: «هلال، لاحظت أنه لا فتيات في لائحة الأصدقاء لديك؟» اقترب هلال منها مقبلاً بشفتيه الدقيقتين خدها النضر: «مستحيل!» نظرت إليه قائلة: «لا أصدق...لم هذا؟» تنهد هلال وهو يقول: «لا أؤمن بصداقة الشاب بالفتاة، دعينا الآن نخرج من هذا الموقع...» سألته سلمى: «حقاً؟» فقال: «بالطبع... أيّ صداقة هذه، التي يدعي شباب اليوم أنها ممكنة بين الجنسين، كلام فارغ...».

كانا يستعدان للخروج في نزهة، عندما أخذت سلمى تفكر في أن مبارك هو الشخص الوحيد الذي آمن بالصداقة بين الجنسين. كان مخطئاً في نظرها، ولقد تأكد لها خطؤه عندما وقعت في حبه وتألمت، وما زالت تعاني حتى اليوم، وبينما كانا على وشك الخروج قال هلال: «بما أنك أثرت هذا الموضوع، أخي يؤمن بهذه الفكرة السخيفة، لقد قادنا للجنو...» أخذ هلال يتحدث، وفكر سلمى في مكان آخر تماماً.

عادا إلى الوطن، وملأت العيون دموع فرح، وأخذت سلمى تعانق كل فرد من أفراد عائلتها، وخاصة والدها الذي شعرت بشوق كبير له، وهلال يقبل والده وأخاه وكل من يعرف، وخاصة والدة طفلة التي جمعت بينه وبين سلمى. كانت سلمى في عين زوجها، المرأة التي كان من المقدر له أن يتخذها زوجته، وشعر بأن عليه أن يحاول قدر المستطاع أن يكون زوجاً يستحقها بحق.

أحست سلمى، بينما كانت في زيارة لأهلها، تمشي في أرجاء غرفتها

المصبوغة باللون البحري، أنها اشتاقت لشخص واحد أكثر من أيّ شخص آخر؛ ذلك الصوت الذي يتحدث في ليلها. أخذت عبارات من مكالماته تتردد في ذهنها. أحسّت سلمى بالذنب، لأن قلبها ما يزال ينبض بحب ذلك الصوت، وشعرت بأنها تخون هلال في مخيلتها، فحبها لذلك الشخص الغريب وشوقها له ولحواراته الممتعة... كلها... يجب أن تتوجه لزوجها، لكن لا شيء بوسعها فعله، فهي لا تتحكم بمشاعرها في نهاية الأمر، بل المشاعر الضئيلة الشفافة التي تكاد لا تدرك، هي من تتحكم في القلوب بقوة تتناقض مع مظهرها الشاحب. نظرت سلمى لصندوقها البرتقالي، الذي أصبح موقعه فوق خزانة الملابس، أنزلته وأخرجت أحمر الشفاه الزهري، وأحست بأن الكثير تغير في السنة الماضية؛ هي تغيّرت وكل شيء تغيّر، لم يبق أيّ شيء على حاله، لكن حبها تجاه ذلك الصوت الذي بدأ ينمو في قلبها منذ اتصاله الأول ومع كل سؤال يطرحه حتى آخر سؤال مصيري طرحته عليه، لم يتغيّر بتاتاً.

61

تركض الأيام كنسمة الهواء الخفيفة. بدأت شما تدرس من جديد، مع بداية السنة الدراسية الجديدة. كانت تعيش مع والدتها في المنزل وتربي ابنها، ومن حين إلى آخر كان سالم يجيء لزيارة ابنه. في البداية كان يتجنبها، لكنه الآن يقترب منها قائلا: «ألن تعودي إليّ؟» تجيب شما: «أحبك... ولكن؟» تتلاقى النظرات، ثم تقول شما محطمة آماله: «لا يمكنني نسيان ما جعلتني أمر به... والأهم لا يمكنني السماح لنفسي بإعادة تلك التجربة القاسية معك.» واجهت الكثير من الصعاب
في التفريق بين دراستها وابنها زايد، وكان يرهقها ذلك أحيانا حتى أنها كانت تريد أن تختفي من الوجود·عندما يوقظها ببكائه في الليل.
أصبحت العلاقة وثيقة بين سلمى وطفلة التي توقفت مؤقتاً عن الدراسة الجامعية بعد أن أصبحت حاملا. كانت سلمى تزورها من حين لآخر، وقد حدث أن تبادلت هي ومبارك بعض النظرات الخاطفة التي لم تكن ذات أهمية لدى سلمى. ذات يوم كانت سلمى تريد سؤال طفلة عن شيء يخص أحد الأمور الجامعية، تناولت الهاتف المتحرك الذي اشتراه لها هلال قبل دخولها الجامعة بأسبوع، وطلبت رقم هاتف طفلة: «آلو...» قالت سلمى، أجاب مبارك الذي شاهد اسم سلمى على شاشة هاتف زوجته التي نسيته في غرفة النوم، عندما نزلت للطابق السفلي لشرب الشاي عصراً. عندما شاهد ذلك الاسم لم يفكر إلا بتلك الفتاة التي كانت صديقة له يوماً: «مرحبا.» قال مبارك. صمتت سلمى لبرهة ثم قالت: «مرحبا، هل يمكنك إيصالي بطفلة لو سمحت؟» كان صوتها مألوفا

بالنسبة له وهي أحست بالشيء ذاته. «طفلة في الطابق السفلي، هل يمكنك الانتظار قليلاً...» قالت سلمى حينما أدركت أن هذا هو مبارك نفسه: «مبارك؟» وكان يفكر بالشيء ذاته: «سلمى؟» تمكن كلاهما من الربط بين الاسم والصوت.

كانت هذه المرة الأولى التي يتحدث فيها مبارك مع سلمى على الهاتف منذ آخر اتصال بينهما، تعرف كل منهما على نبرة صوت الآخر، اتضحت الصورة الآن، لحظة واحدة استوعبا فيها أمراً يحبان نكرانه، لصعوبة قدرتهما على تخيله. «سلمى، لماذا تتصلين أنت...؟». شعر مبارك بالخوف للوهلة الأولى، ثم أحس فجأة بالسرور، وهو ما لم تشعر به سلمى. أرادت أن تصدق نفسها، حينما كانت تقول لنفسها بأن شعورها تجاه ذلك الصوت مجرد شعور عابر، لكن بينها وبين نفسها، تعلم جيداً أنه لم يكن شعوراً عابراً، بل حباً صادقاً عليها الآن أن تحاول انتزاعه من قلبها.

لم تقو سلمى على قول شيء: «سلمى؟ أنت سلمى... زوجة أخي هلال، هذا لا يصدّق.» كانت هذه الحقيقة قاتلة بالنسبة لسلمى. أخذ مبارك يسترجع نهاية صداقته بها واعترافها المفاجئ بحبها له. صمت مبارك، ثم قالت سلمى: «مبارك، هلاّ ناولت الهاتف إلى طفلة؟» شعر بالسوء: «ماذا؟ هل ستتصرفين كأن شيئاً لم يكن بيننا؟» شعرت سلمى بدموعها تملأ عينيها: «لم يكن أيّ شيء بيننا! كانت مجرد مكالمات بريئة، كنا أصدقاء لا أكثر، صحيح؟» أجاب مبارك: «صحيح، ولكن هذا ليس ما أتحدث عنه، أنت تعلمين كيف انتهت صداقتنا، ولماذا؟ هل مازال ذلك السبب قائماً سلمى؟» صمتت سلمى وهي تعلم الجواب إلا أنها ترفض إخباره، لأن ذلك سيجعل كل شيء يتحول إلى كارثة: «سلمى... أفهم أنك ما تزالين تحبينني؟» أجابت سلمى بالنفي: «لا بالطبع، مبارك... ما همك إن كنت ما أزال أحبك أم لا! أرجوك انس كل شيء، أنا زوجة أخيك الآن... لا نفع من النبش في الماضي.» أجاب مبارك بلا تردد: «لأني أحبك أنا

أيضاً سلمى.»

لم تفكر سـلمى في أيّ وقت من الأوقـات، أن مبارك قد يحبها، وما قاله للتو صـعقها. «ماذا!» قـالت سـلمى، التي بقدر مـا رغبت في حبه أرادت لـو أنـه لم يقـل ذلك، فهي لا تريـد أيّة معانـاة في حياتهـا، ولا تريد أن تعيش حيـاة تملؤهـا التعقيدات. «سـلمى، لسـت أعلم كيف حـدث هذا، ولكني أدركت بـأني مهما كنت رائعاً مع طفلة، لن تحبني، إنها لا تحبني فحسـب، لا أقـدر على أن أشرح لـك، ولكن يبدو أن مشـاعري انتقلت من طفلة إليك، لم أتوقف عن التفكير بك سـلمى، إننا مناسبان جداً لبعضنا، وهذا ما أدركته في النهاية، سلمى؟ أجيبيني سلمى؟»

كل حرف ينطق به مبارك، صدمة تلطم وجه سـلمى، التي كانت تشـعر بـأنها غير قادرة على التحدث بعد الآن. أخذت الدموع من عينيها تنهمر وهـي تقول: «مبـارك، إنك تزيد الأمر سـوءاً... إنك مخطئ، أنت لا تحبني... ربما تشعر بالشفقة تجاهـي، لا أدري؟ لكن ما أعرفه هو أنك تحب زوجتك... أنك تعشقها وهـي كذلك لا بد من ذلك...» أرادت سلمى لو أن هذه المكالمة لم تحدث، تمنت لو أنهما لم يتعرفا على صوت بعضهما، أحست بنفسها تكاد تختنق وهـي تستمع إليه، إن ما يقوله لا يمكن أن تصدقه.

كانت تريد بشدة البدء في حياتها، لكنها في معركتها مع الحياة، وليس في الحياة، أخذت ترى أن الحياة التي تعيشـها بوجود مبارك الذي تنكر أنها تحبه، مستحيلة، فهي تأمل أن يستمر في حياته كما ستفعل هـي، فلا شيء يمكنهما فعله، عليهما الآن محاولة محو كل ذلك من قلبيهما، فطفلة على وشك أن تنجب ابنه وستكون علاقتهما أوثق. «صدقني مبارك، أنت تحب طفلة كثيراً... وهـي حامل بابنك!» كانت سـلمى تحاول أن تجعله يلتفت إلى المرأة التي كان مجنوناً بها يوماً: «لا... أشعر بالفراغ نحوها، لا أحس بذلك الشيء تجاهها كما في الماضي... كما أحسه تجاهك الآن، لا أحـد يخبرني من أحب ومن أكره...» سـألت سـلمى: «ولكـن؟ أين ذهب كل ذلـك الحـب تجاه طفلة؟ لقد أحببتها أنا نفسـي مـن كثرة ما تحدثت

عنها! مبارك... اعقل... تمالك نفسك...» صمتا ثم قالت سلمى نادمة: «يا ليتني لم أوافق على التحدث معك...» قال مبارك: «سلمى لا تقولي ذلك، ثم.... الخطأ ليس خطأك... إن لم أعرف أنك زوجة أخي حتى أموت، كنت ستبقين في تفكيري أياً كان...». قبل أن تغلق سلمى الخط، قال مبارك: «أريد أن أخبرك يا سلمى، أني أؤمن بالصدفة الآن.» اقتربت طفلة من زوجها مبارك وقبلته بقوة وهي تقول: «أحبك.»

دخل هلال الغرفة، بينما كانت سلمى تضع الهاتف النقال جانباً، وتمسح دموعها بأناملها الدقيقة. هرول هلال إليها قلقاً، وهو يسألها عن خطيبها، فقالت له أنها تحدثت إلى طفلة للتو، وهي تشعر بالسعادة والإثارة لأنها ستلد قريبا. انحنى هلال وقبل رأسها، وقال لها أنها ستحظى بذلك هي أيضاً في المستقبل. اقتربت سلمى من النافذة في نهاية الرواق، وهي تحبس دموعها بجبن في عينيها، تنظر للشمس وهي تستعد للرحيل.

تستطيع الشعور بذلك الكسل يدوس على كتفيها، يتنزه برشاقة على عمودها الفقري، يقفز فقرة تلو الأخرى برفق لطيف. تتقلب على سريرها بلا توقف، لتسمح لخلايا جسدها باستعادة قوتها كي تنتصر على الكسل المحبوب.

Cover design by: Naser Bakheet&Mohamed Al Mazrouei



SEFSAFA PUBLISHING HOUSE
www.sefsafa.com



Printed in Egypt